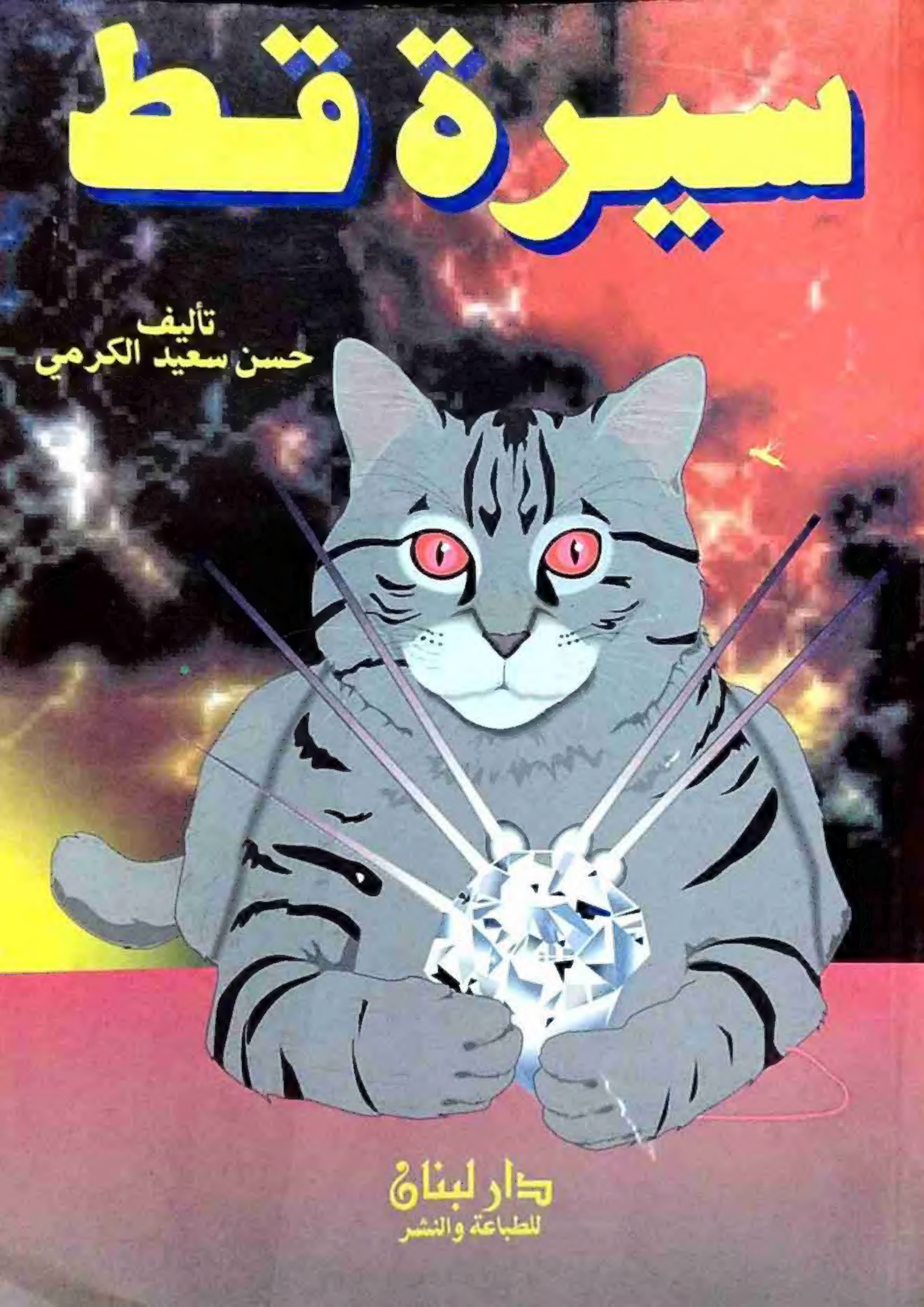
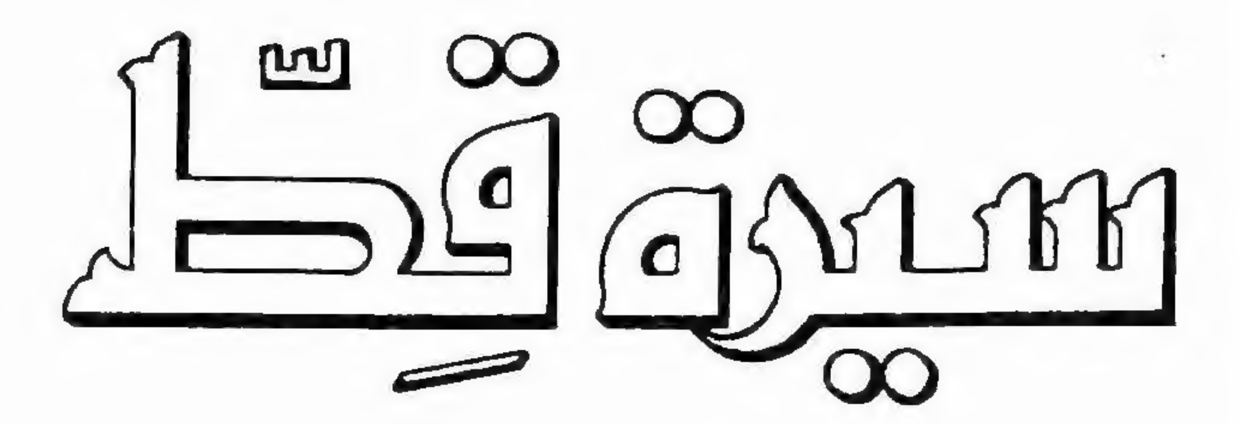

سيرة قط
تأليف
حسن سعيد الكرمي
دار لبنان
للطباعة والنشر

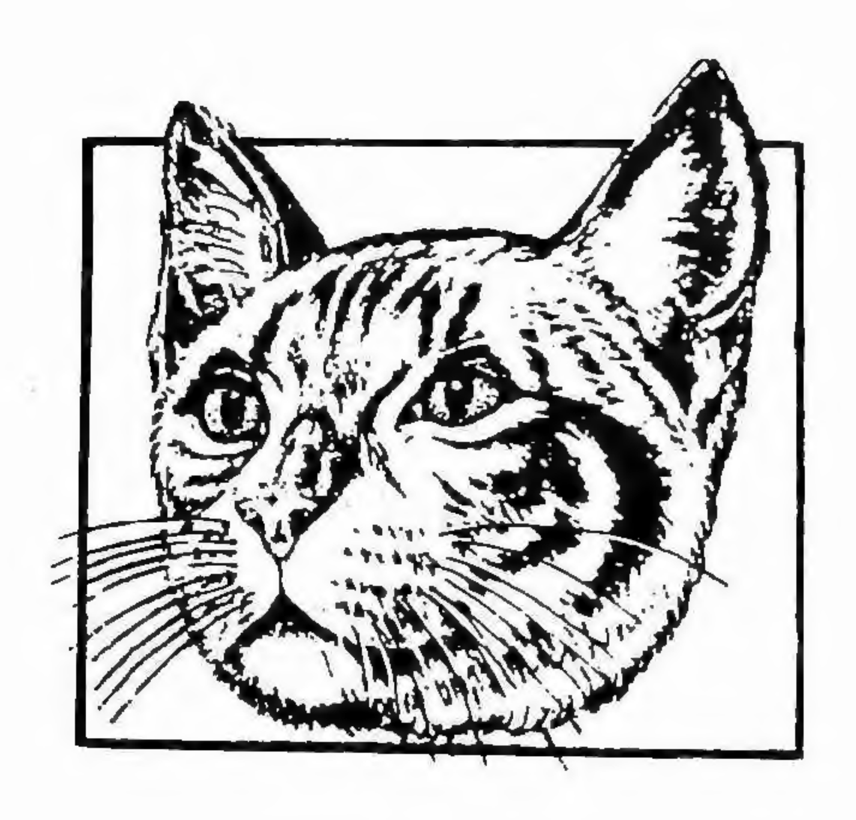

سيرة قط

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م
بيروت

حسن سعيد الكرمي



سيرة قط



دار لبنان للطباعة والنشر

المقدمة

لسائل أن يسأل: ما الفائدة من كتاب عن سيرة قط؟ والجواب على ذلك أن السيرة نفسها ليست هي المقصود من الكتابة، وإنما المقصود تلك العلاقة العاطفية بين حيوان وإنسان وجدا فيما بينهما عاملاً مشتركاً يربط بينهما برباط المحبة وصلة التفاهم.

والقط في تعامله مع الإنسان وتعاطفه معه أمر سجّله التاريخ من الوجهة الدينية والمعتقدات الشعبية. ولهذا اشتمل الكتاب على صلة القط بالأديان وبالسحر وبحياة الشعب وعلى ما كان للقط من مكانة عند الأدباء والشعراء والعظام من الرجال. ولعل هذا الطراز من الكتابات له مزيّة أخرى وهي تعريف القراء بجانب طريف من حياة حيوان أليف يحملهم على الرفق بهذا الحيوان وعلى اتخاذه رفيقاً لهم وأنيساً في وحدتهم.

وها أنا ذا أقدم هذا الكتاب خدمة لهذا الغرض وأرجو أن يجد القراء فيه متعة كالمتعة التي وجدتها لما كتبته.

حسن سعيد الكرمي

حب القطاط

كنت أسمَّى في صغري بأبي القِطاط لأنني، كما كـانوا يقـولون لي، كنت مغرماً بالقِطاط غراماً شديداً. فكنت إذا رأيت قـطة في البيت، وأنا لا أزال طفلاً، حَبوْت إليها وأمسكتها في فمي من قـذالها، وزحفت بهـا على الأرض، وهي تموء، مدة طويلة إلى أن يأتي أحد يخلصها مني، ولـو أنني كنت أبكي مـرّ البكاء لـذلك. وكـانوا يقـولون لي إنـه كان لي قـطة صغيرة أخذوها من الجيران لتسليتي، وكانت وديعة لا تخمش ولا تعض، وعاشت معي مدة طويلة، حتى كبرت ولم أقوَ على حملها بين أسناني. ويقال إنني كنت، بعـد أن كبـرت قليـلاً، أخـاطب القـطة كمـا لـو أني كنت أخـاطب إنسـاناً؛ وكنت آتي بـالخرق وأخيـطها على شكـل ثوب ألبسهـا إيـاه. وإذا نامت معي في الفراش، كنت أمد لها قطعة من الخيش تنام عليها بجانبي، خـوفاً من تـوسيخ الفـراش. وكنت بالـطبع أسهـر على راحتهـا وإطعـامهـا وسقيهـا، فإذا كبـرت وصارت ضخمـة نسبياً، طلبت قـطة صغيرة أخـرى، وهكذا.

ولم يفارقني حب القطاط قط، لا في صغـري ولا في شبابي ولا في وقتي الحاضر. ولعلَّ ما تعودت عليه في الصغر من معاشـرة القطاط تـرسخ

في نفسي، ولم تمحه المشاغل الأخرى من دراسة أو تمتع في الحياة على أشكاله. فإنني أذكر أنني وأنا في العشرينات من عمري أنه كان لي قطٌّ كبير الجسم شرس الطباع عضاض خمّاش، كنت أشتري له بنفسي بقايا اللحم والعظام من اللحام وأقدمها إليه. فمرض يوماً ما، وامتنع عن الطعام، وأصيب بمرض في الأمعاء؛ ومع ذلك فكنت، كعادتي في صغري، أضعه في فراشي عند الليل وأمهد له قطعة من الخيش، إلى الصباح. ولكنه مع الأسف مات بعد ذلك. فدفنته في أرض البستان ووضعت فوق قبره خشبة، كنت، كلما رأيتها، يتكدر خاطري، وأحزن عليه.

وأسميته سنوكي..

ورأيت الناس بعد ذلك يربون الكلاب الإفرنجية، فخطر في بالي أن أجرب تربية الكلاب. ففي يوم من الأيام جاءني غلام إنكليزي في القدس (وكنت أعلمه الرياضيات) بكلب صغير إفرنجي، فأخذته منه، وأسميته (سنوكي)، وأخذت أعنى به علّني أجد فيه ما كنت أجد في القطاط من تسلية. وكان كلباً ذكيًا ألوفاً؛ إلاّ أنه كان ينام في النهار ويفيق في الليل، وكان لا يحلو له العواء إلاّ في الليل، فتضجر الجيران منه، فحبسته في داخل البيت، ولكنَّ المصيبة عادت علينا، لأن عواءه كان يقلق راحتنا في الليل. وتكلمت في أمره مع تلميذي الإنكليزي فقال إنه لا يزال صغيراً ولا بد أن يهدأ بعد ذلك. ولكنه كان شروداً، فكنا نضطر إلى ربطه في البستان، فكان يعوي طول الوقت إلى أن نغلب على أنفسنا فنحل رباطه. وكان أحياناً يتبع ابنتي أو ابني إلى المدرسة على مسافةٍ بعيدة، وأحياناً يتبع زوجتي إلى وسط المدينة، فكانت لا تشعر بوجوده إلاّ عند نزولها من (الباص)، فيقفز وراءها من مخبئه تحت أحد المقاعد. وما أشد ما كانت تشعر به زوجتي من الخجل والارتباك حينما كانت ترى الكلب يلحس أذيالها ويتقافز على ثيابها للسلام عليها، كعادة الكلاب الإفرنجية. وكانت

عادة تربية الكلاب، ولو كانت إفرنجية، عادة ذميمة مخجلة عند رجال المسلمين، فكيف بها عند نسائهم! فهي فضيحة وأي فضيحة! فكانت زوجتي تضطر إلى ركوب الباص مرة ثانية والعودة إلى البيت. وفي إحدى المرار، ذهب الكلب مع ابني إلى المدرسة، فتجمع حوله الأولاد وأخذوا يلاعبونه ويتشارسون معه في لعبهم، ولم يكن ابني يقوى على ردّهم عنه، فذهب إلى المعلم باكياً، فسمح له بأن يأخذ الكلب إلى البيت ثم يعود إلى المدرسة.

وحاصل الأمر أننا ضقنا بهذا الكلب ذرعاً، وضاق الجيران به ذرعاً بسبب عوائه طول الليل، وأخذنا نفكر في إعادته إلى صاحبه أو في إعطائه إلى الغير. وصادف في ذلك الوقت أنّ مرضاً حل في كلاب المدينة (القدس)، وأصدرت إدارة الصحة أمراً يحتم على أصحاب الكلاب بأن يربطوا كلابهم ولا يدعوها سائبة. فربطنا (سنوكي) في البستان، ولكن مَن يستطيع أن يهدىء سنوكي ويجعله يقبل بالربط!؟ فأخذ يعوي ويصيح ويشد الحبل، حتى خشينا عليه من الاختناق، فأطلقته زوجتي، فجاء ووقف بجانبها على باب البستان أمام الدار. وصادف في تلك الآونة أن مرّ رجلان من رجال الشرطة ومعهما بندقية صيد لقتل الكلاب السائبة. فرأى أحدهما الكلب فالتاً، فما كان منه إلا أن صوّب البندقية إلى الكلب يريد قتله، والكلب لا يعي من ذلك شيئاً، ولو وعى لهرب. فصاحت زوجتي برجل الشرطة، فتوقف عن إطلاق النار، وبعد أخذٍ ورد، كتب اسم زوجتي باعتبارها صاحبة الكلب، وقال لها أنها ستأتي إلى المحكمة في موعدٍ يعين لها لإعطاء بيانٍ عن ترك الكلب طليقاً، خلافاً لأمر دائرة الصحة. وفعلاً أرسلت إلى زوجتي ورقة حضور إلى المحكمة، وذهبت أنا مكانها، فقال لي القاضي: الكلب فالت؛ ثلاثة جنيهات غرامة. فدفعت المبلغ، وخرجت. وقلت: هذا فراق بيني وبين سنوكي. فأعطيته إلى مصلحة الرفق بالحيوان. ولا أدري حتى الآن ماذا حلّ به، ولكنني

وزوجتي وأولادي لا نزال نذكر ذلك الكلب ونذكر له بعض حركاته الغريبة الدالة على الذكاء وحسن الوفاء.

وأذكر أننا كنا تغيبنا عن القدس مدة أيام في زيارة للأقارب في طولكرم، وتركنا (سنوكي) في البيت برعاية خادمة لنا؛ فلما عُدنا في سيارةٍ لأحد السواقين من نابلس، ونزلنا من السيارة هجم (سنوكي) علينا هجوم المشتاق إلى رؤيتنا وأخذ يتقافز علينا واحداً بعد الآخر مرحباً ومسلماً؛ ورأى هذا المنظر سائق السيارة وكان معه زوجتاه، فاستغرب استغراباً شديداً من وفاء الكلب وقال: والله هذا الكلب أحسن من زوجتي الاثنتين. وذكرني قوله هذا بقول مدام رولان Madame Roland (أعدمت بالمقصلة في سنة ١٧٩٣).. «كلما كثرت رؤيتي للرجال كثر احترامي للكلاب»!.

ونعود إلى القطاط..

والقِطاط تدرك الصوت الحنون من الصوت الجافي. فإذا صحتَ به بصوتٍ جاف عرف أنك تؤنبه، فيلطأ بالأرض أو يفزع إلى زاوية في البيت يختبىء فيها. وأذكر أن ابني كان إذا لاعب القط يتكلم معه بصوتٍ مرتفع شديد، بدون أن يقصد تأنيبه. فكان القط ينفر من ذلك، ويرتسم هذا النفور في عينيه وفي أذنيه، وكثيراً ما كان يكشر عن أنيابه ويهر. فكنت أقول لابني أن يخفف من حدة صوته ويرققه، فكان القطّ يهدأ ويعود إلى وداعته.

ولهذا السبب تفزع القطاط من الصوت العالي. وكان قطنا يكره الأولاد الصغار لارتفاع أصواتهم عند الكلام وصياحهم. فكان إذا رأى ولداً صغيراً في البيت، ينفش شعره ويكشر عن أنيابه، وينتحي ناحية من البيت. وهنا ينتهي الأمر، ولكن إذا تمادى الولد وأخذ يقترب منه، اشتد غضب القط وهجم على الولد وضربه بمخلب يده، وكثيراً ما كان هذا القط يهجم على الولد إذا رآه في البيت ويضربه بمخلبه، بدون أن يكون

الولد قد أحدث شيئاً مزعجاً أو صاح أو اقترب منه. ولعلَّ القط قد أدرك أن الـولد والصيـاح شيئان متـلازمان، فكـان إذا رأى الولـد قدَّر في نفسـه أنـه سيصيح، فهو يبدأ به أولاً فيهاجمه، على طريقة الحرب الوقائية.

قررتُ بعد ذلـك أن لا أقتني كلباً، وخشيت، إن اقتنيت قـطة أو قطًّا أن يحدث له ما حدث لآخر قط ربيته ومـات. وفعلاً بقيت سنين بـلا قط. ومـع شدة حبي للقـطاط، كانت زوجتي على العكس مني تكـرهها. وهي التي، على مـا أظن، كانت السبب الأكبـر في منعي من تربيـة القـطاط في البيت.

وفي بـلاد الإنكليز، لا يكـاد الإنسان يجـد بيتاً يخلو من الكـلاب أو من القـطاط. وكان في البيت المجـاور لنا في لنـدن قِط تربى مـع الأسرة، وكـان أسود فـاحماً كبيـر الجسم مُسناً ومخصيـاً. وعـادة كثيـر من الإنكليـز خصي القطاط الذكور بعملية جراحية عند الصغر، حتى لا تتغيب هـذه عن البيت في شهر شباط عند المسافدة. وكثير من القطاط غير المخصيـة تضل طـريقهـا ولا تعـرف كيف تعـود إلى البيت، وفي هــذا مـا فيــه من حـزنٍ لأصحاب القطاط. ويصرف رجال الشـرطة قسطاً كبيراً من وقتهم يبحثـون عن القطاط والكلاب الضالة في لنـدن. ويجب، بحسب أنظمـة الشرطـة، قـطع رخصة للكلب، ولكن لا يجب قـطع رخصة للقط. وكثيـر من الناس يعلقون صفيحة معدنية في عنق القط أو الكلب، عليها عنوان البيت، حتى يُعـرف إلى أي مكان يُـرد الكلب أو القط الضال. وبمـا أن ولاء الكلب هو لأصحاب البيت دون البيت، كما يقول الجاحظ في كتاب (الحيوان)، فـإن الكلب ينقـل ولاءه لأصحابـه الجدد ولـو بعد مـدة. في حين أن ولاء القط للبيت دون أصحاب البيت، ولذلـك فإن ضـلال القط أشق وأصعب عليه، لأنـه لا يقبـل بسهـولـة على أصحـابـه الجـدد ويـظل يحن إلى بيتـه الأول كالإنسان.

شامة الوفية..

ومع ذلك فقد عرفت وأنا في دمشق قصة عن قطة اسمها (شامة) كانت لسيدة تعنى بالقطاط وتحبها. ربّت هذه السيدة تلك القطة منذ صغرها، واعتنت بها اعتناءً كبيراً، وكانت القطة جميلة، بحسب ما تكون القطاط جميلة، وكان لها شعر ناعم طويل. وكان من عادة بعض الناس في دمشق أن يشتروا القطاط البيتية ويبيعونها، وبعضهم الآخر كان يسرق القطاط من الطرقات أو من أبواب البيوت ويبيعونها للناس في حارات بعيدة.

وحدث أن هذه السيدة فقدت قطتها يوماً من الأيام، وبحثت عنها عند الجيران، وفي الطرقات والشوارع، وعند الجزارين، فلم تجدها، وأيقنت بعد انتظار بضعة أيام أن القطة قد فقدت لسبب من الأسباب، وانقطعت عن البحث وسؤال الناس عنها.

وذات يوم بعد شهر أو شهرين ذهبت السيدة من حي المهاجرين لزيارة بعض الأقارب في حي الميدان ـ وشتان ما بينهما. وبينما كانت تسير في الطريق إذ حانت منها التفاتة إلى قطة تشبه قطتها نائمة على لوح من الخشب أمام أحد الدكاكين. فاقتربت منها ونادتها باسمها، فما كان من القطة إلا أن هبت من نومها، تموء مواءً شديداً، وقفزت إلى صدر السيدة وتعلقت بها، وأخذت تحك رأسها وتدسه في ثيابها وتموء، وتنظر إلى وجهها نظرة الملهوف المستغيث. فضمتها السيدة إلى صدرها، وأخذت تداعبها وتملّس شعرها. فاستغرب صاحب الدكان من ذلك، ثم سألته من أين كانت له تلك القطة. فأخبرها أنه اشتراها من بعض الناس. فعرضت عليه أن تشتريها منه بالثمن الذي دفعه أو بالثمن الذي يريده. فدفعت له المبلغ، وعادت بقطتها إلى بيتها.

القطط والأصوات..

وقد تكون هذه الحكاية دليلاً على أن القطاط تذكر من أصحابها لحن أصواتهم، فإذا سمعت هذه الأصوات تذكرت. والمصداق لذلك أن قطاً لنا كان يكون مستغرقاً في النوم، فإذا سمع صوت زوجتي تقول له: «تاكلي بسينة؟» كان يهب من نومه ويتوجه إلى المطبخ للأكل.

لم تَعِش طويلاً..

ولمّا رأينا أن البيت الإنكليزي لا يخلو من قط أو كلب أو عدد من القطاط أو الكلاب، أو الجنسين معاً، بدأنا نفكر باقتناء قط في البيت. وأصرَّ أولادي على ذلك، ومانعت زوجتي ممانعة شديدة، لأنها هي التي كانت ستتعب في تربية القط الصغير، وتعويده على قضاء الحاجة خارج البيت، والمحافظة عليه من البرد، وشراء طعامه من السوق، لأن القطاط هنا لا تأكل كل شيء كما في البلاد العربية، بل لها طعام خاص محفوظ في العلب. وأخيراً اقتنينا قطة صغيرة سوداء. ولم نكن نعرف في بادىء الأمر كيف تعويدها على قضاء الحاجة؛ فكانت تقضي الحاجة أينما خطر في بالها في داخل البيت. فضجت زوجتي من ذلك. وتركتها في إحدى الليالي خارج البيت على إحدى شجرات البستان، وكانت هذه تحب الصعود إلى الشجر لشدة مرحها ونشاطها. وفي تلك الليلة، هجم عليها قط كبير، فتعارك معها وشق بطنها بمخلبه.ووجدناها في الصباح بين الميتة والحية، فغسلنا جرحها وعملنا لها ما استطعنا عليه، واستشرنا طبيب الحيوانات، فأعطانا مُطهّراً نستعمله. ولكنَّ القطة لم تعش طويلاً وماتت. فدفناها في البستان، كما كنت دفنت القط في السابق.

قطة أخرى سوداء..

ثم أصرّ أولادي على اقتناء قطة أخرى أو قط آخر، ولاموا أمهم لأنها

كانت السبب في موت القطة، فرضيت الأم، تخفيفاً عن حزن الأولاد، واقتنينا قطة صغيرة أخرى سوداء أيضاً. وكنا في تلك الأثناء قد تعلمنا كيف نعوّد القطة على قضاء حاجتها في داخل البيت. فأتينا بقفة ووضعنا فيها شيئاً من التراب، فكانت القطة تأتي إلى القفة وتقضي حاجتها فيها وتدفنها كعادة القطاط، وهكذا إلى أن كبرت القطة وصارت تخرج إلى الخارج وتقضي حاجتها في البستان.

وأذكر أن الأستاذ حبيب الجاماتي كان في زيارة لنا ورأى استعداداتنا لتلك القطة وعنايتنا بها، ورآها كيف تلعب وتمرح معنا، أُعجب بها إعجاباً شديداً، وقال: ليتكم تكتبون قصة عن حياة هذه القطة.

وبعد أن استرحنا من هذه الناحية، وحسن حال القطة، وبدأنا نتسلى بها، صادف أن جاء أحد البائعين إلى البيت ففتحت زوجتي الباب الرئيسي لتأخذ منه بعض الأغراض، فخرجت القطة مسرعة إلى الشارع، ولم تستطع زوجتي اللحاق بها حتى تستردها. وانتظرت طول النهار علّها تعود إلى البيت، ولكن انقضى النهار ولم تعد. ولما عدنا في المساء وعرفنا خبر القطة تأثرنا كثيراً حزناً عليها لأنها صغيرة جاهلة لا تعرف كيف تذهب وتجيء، وخفنا أن تدوسها إحدى السيارات. ولم نكن نعرف كيف يكون البحث عن القطط الضالة. فسألنا الجيران، فنصحونا بأن نكتب إعلاناً ونلصقه على باب البستان المطل على الشارع، ونكتب فيه أوصاف القطة. فعلنا ذلك، وعلقنا الإعلان على باب البستان، فكانت النساء يمررن بالباب ويقرأن الإعلان، ويواسين زوجتي أو أحد أولادي. وبقي الإعلان أكثر من عشرة أيام، إلى أن يئسنا من عودة القطة فرفعنا الإعلان.

قطة سوداء أيضاً..

واقتنينا بعد ذلك قطة صغيرة أخرى سوداء أيضاً. وسررنا بها سروراً كبيراً، لأن أولادي وجميعنا أصبحنا خبراء في تربية القطاط الصغار.

وكبرت هذه القطة، وكانت من أشد القطاط نشاطاً ومرحاً في البيت. وكان الأولاد يتنافسون في تدليلها والعناية بها والسهر عليها. وتركناها لابني يربيها بنفسه على اعتبار أنها له. فكانت تنام في حضنه في النهار، وفي فراشه في الليل. وكان يلاعبها بشتى أنواع الألعاب. وكانت شديدة الإقبال عليه، حتى إنها كانت تعرف صوت دعسته وهو خارج البيت إذا اقترب من الباب، فكانت ترفع رأسها وتصيخ بأذنيها نحو الباب، فإذا دخل الغرفة قفزت من مضجعها وأخذت تموء وتحوم حول رجليه إلى أن يحملها بين ذراعيه، وصارت تخرج إلى البستان وإلى الشارع وتغيب مدة ثم تعود.

وفي يوم ٍ من الأيام خرجت هذه القطة كعادتها إلى البستان، وانشغلت زوجتي في البيت ثم خرجت في زيارة لبعض الأصدقاء. ولما عادت إلى البيت، لم تجد القطة فيه، وكانت من عادتها أن تترك لها شباكاً منخفضاً يطل على البستان كانت تأتي إلى البيت منه بعد خروجها إلى البستان. ووجدت زوجتي الشباك مفتوحاً، ولكن القطة لم تعد، فخرجت تبحث عنها في البستان فلم تجدها. ثم لمّا جاء الأولاد من مدرستهم في المساء، أخبرتهم أمهم خبر القطة، فتفرقوا خارج البيت يبحثون عنها. ثم عادوا بدون القطة. وانتظرنا عودتها في الليل، ولكنها لم تعد، ولم تعد أيضاً في الصباح، فذهب الأولاد إلى مدرستهم ولم يرَوْها. ولكنَّ القطة عادت عند الظهر فاترة تجر رجليها من التعب أو من البرد، لأن البرد كان قد اشتد. فأخذتها زوجتي إلى الدفء في البيت وعرضت عليها شيئاً من طعامها ومن الحليب، فلم تأكل شيئاً، ولجأت إلى ناحية منزوية من الغرفة وهبطت هناك، وعليها علائم المرض التي لا تخفى. فتركتها هناك وانتظرت مجيء أولادها. فلما جاءوا ورأوا القطة على تلك الحال اغتمّوا لذلك، وحاولوا إطعامها، ولكنها رفضت تناول أي شيء. وكلّ ما أدخلته إلى جوفها أنها كانت تذهب إلى مشربتها وتشرب الماء بين حين وآخر. وعرفنا من ذلك أنها كانت تشكو من التهاب في معدتها أو أمعائها، إما

بسبب التعرض للبرد وإما لأنها أكلت شيئاً لم يوافقها، وفي الصباح أخذ ابني يعالجها بمعرفته، ولكن حالتها ازدادت سوءاً، حتى إنها لقلة الغذاء، كانت تجرّ أرجلها جرًّا لضعفها ونفاد قوتها، وفي آخر الأمر، أخذها ابني إلى طبيبة للحيوانات، فلمّا رأتها عنفته لأنه لم يأتِ بها في أول مرضها. وقالت له إن القطة في خطر، ثم أعطته وصفة طبية، فاشتراها من الصيدلية. وأخذ يعطي القطة الدواء، ولكنها ماتت بعد يومين أو ثلاثة، فحزن ابني عليها حزناً شديداً، وبكى، وبكينا معه، وبكى الجيران معنا. ودُفنت القطة في أرض البستان بجانب القطة السابقة أو القطتين السابقتين. وكتب ابني إلى طبيبة الحيوانات يخبرها بموت القطة، فأرسلت إليه كتاباً رقيقاً تعزيه بموتها وتأسف لأنها لم تستطع إنقاذ حياتها.

وكان ابني مولعاً مثلي بالقطاط. ولعلّ ولعه هذا قد زاد بعد موت هذه القطة، وزاد معه شفقته على القطاط عموماً، فكان لا يريد أن يمسها أحد بسوء، ويغضب كثيراً إذا رأى قطاً (أو قطة) يعامل معاملة سيئة. والدليل على ذلك حكاية جرت له فيما بعد. فقد كان عائداً في سيارته من عمله في إحدى الشركات الهندسية في لندن، وكان الثلج والصقيع يغطيان شوارع المدينة وسطوح بيوتها، فرأى في الطريق قطاً يجتاز الشارع أمامه، فخشي أن يدوسه بسيارته (مع أنه لا حرج على السائق إذا قتل قطاً أو قطة في بريطانيا بسيارته؛ ولكنه يؤاخذ قانوناً إذا قتل كلباً أو كلبة، لأن الكلاب لها رخص وأرقام كالسيارات، ويدفع أصحابها رسوماً على هذه الرخص)، فانفتل بها إلى اليمين بسرعة، فنجا القط، ولكنَّ السيارة، بسبب الانفعال السريع ووجود الصقيع، اصطدمت بعمودٍ على جانب الطريق، وتحطمت، ونجا ابني وصديقه بأعجوبةٍ من موتٍ محقق، وكانت الخسارة لا تقل عن مئتي جنيه. وبهذه الخسارة افتدى ابني حياة ذلك القط، ولولا لطف الله لكانت الخسارة لا تعوض.

سنتان بدون قِطط..

وهكذا كان فقد القطة الثالثة. فقررنا أن لا نقتني قطة أو قطاً بعد ذلك ووطدنا النفس على هذا العزم. ومضت سنة أو سنتان، ونحن بدون قطة، وقد سلينا ونسينا. وجاءنا في أحد الأيام مندوب عن إحدى الجمعيات الخيرية، يطلب منا إعانة لتصرف على إطعام القطاط والكلاب التي يقتنيها أناسٌ فقراء لا يقدرون على الإنفاق عليها وإطعامها كما يجب. فتبرعنا للجمعية بسخاءٍ، حزناً منا على القِطاط إذا جاعت أو عطشت أو عارت في الشوارع بدون مأوى. وكم تمنيت لو أن في البلاد الأخرى من يقوم بهذه المهمة إشفاقاً على الإنسان قبل الحيوان.

أقول في البلاد الأخرى، والأحرى بي أن أقول في البلاد العربية، فإن الناس في هذه البلاد يقسمون القطاط إلى قسمين: قطاط أهلية وقطاط برية. والقطاط الأهلية على قسمين: قطاط تعيش في البيوت منعمة مرفهة، وقطاط تعيش في الشوارع والأزقة، بلا مأوى، تنام على أبواب البيوت يطردها الناس ويضربها الأولاد. وقد كنت أرى بأم عيني كيف أن بعض غلاظ القلوب إذا ظفر بقطة أو قط من هذه القطاط كان يمسكه من ذنبه ويلوح به مرة أو مرتين ثم يضرب به بحائط أو بصخر، ولا يزال يفعل ذلك حتى يقتله أو يتركه أقرب إلى الموت من الحياة، دون أن يجد هذا القط المنكود الحظ من يقيم النكير على هذه الفعلة الشنيعة. ونصيب أمثال هذه القطاط الموت إما من الجوع وإما من البرد وإما بيد هؤلاء المجرمين.

نساء دمشق يحببن القطط

القط فدعوس..

وقد وجدت في الغرب من هم أقسى من ذلك، فإنني أعرف امرأة كانت تقتل القطاط بأن تسحق لها الزجاج وتطعم المسحوق للقطاط فتتمزق أمعاؤها وتموت.

ومع ذلك، فليس كل الناس في بلادنا العربية يعامل القطاط بهذه الصورة الوحشية، فإنني أعرف مثلاً أن الناس في دمشق، وخصوصاً النساء منهم، مغرمون جداً بالقطاط يربونها ويعتنون بها اعتناءً شديداً ويضعون في أعناقها الأجراس، ويزينونها أحياناً. وكثيراً ما يجد المرء في البيت الواحد في دمشق أكثر من قط واحد، بل عدداً منها يزيد أحياناً على الخمسة أو الستة. وأذكر، في هذه المناسبة أن أفراد إحدى الأسر كانوا من أشد الناس حرصاً على تربية القطاط ويحبونها حباً جمًّا، صغيرهم وكبيرهم. ومن ذلك مثلاً أن إحدى بناتهم كان لها وهي صغيرة، قط صغير يسمى (سليم) كان لا يزال رضيعاً، فكانت تلقمه ثديها فيمتصه كأنه ثدي أمه، ولذلك كانوا يسمونها بأم سليم على اسم ذلك القط. وكان لهم قط اسمه (فدعوس) من أغرب ما عرف من القطاط، وكان منقطعاً إلى رب البيت نفسه، فكان ينام معه في الفراش، ويحدثه كأنه يحدث طفلاً أو ولداً، وإذا حدثه كان يرد عليه بأصواتٍ ونغمات مختلفة ذوات معنى لمن يفهم المواء. وكان إذا خرج من البيت وأراد العودة، وقف على الباب وقام على رجليه وأمسك بحلقة الباب وجذبها حتى تطرق الباب. فكانوا يعرفون من طرق حلقة الباب أن (فدعوس) يريد الدخول، فيفتحون له الباب. وكان، إذا كان نائماً، يرفع رأسه فجأة ويصيخ بسمعه، ثم يثب ويقف أمام الباب من الداخل ناصباً أذنيه يموء، ويصوب نظره إلى ثقب قفل الباب، منتظراً متوقعاً، وإذا بصاحب البيت يفتح الباب ويدخل، وحينئذ يرى المرء العجب من حركات ذلك القط، ومن فرحه بلقاء صاحبه، هكذا كان هذا القط يسمع دعسة صاحبه ويعرفها، من بين جميع الدعسات الأخرى التي ما كان يبالي بها.

وكان (فدعوس) يأتي إلى البيت من فوق السطح حاملاً في فمه حمامةً حية، فيأتي إلى ابن صاحب البيت ويسلمه إياها، وهذا كان دأبه كل يوم. ولم يكن أصحاب البيت يعرفون من أين كان فدعوس يأتي بهذه

الحمامة. وخرج (فدعوس) يوماً كعادته للصيد، ولكنه لم يعد بعد ذلك، ولا يعرف حتى الآن ما الذي حلَّ به؛ ولكنّ المفهوم أن أصحاب الحمام ترقبوه وأمسكوا به وقتلوه.

ولهذا القط (فدعوس) حكاية طريفة. إن صاحبة البيت كانت لها قطة ربتها لصيد الفئران، وكان لا يعيش لها صغار؛ فاحتارت صاحبة البيت في أمرها، ثم ذهبت إلى أحد الشيوخ فكتب لها حرزاً، وعلقته في رقبة تلك القطة، لوقاية صغارها من الموت. ولمّا ولدت القطة مرة أخرى، عاش من أولادها قطان أحدهما سموه (سليم) والآخر سموه (فدعوس) ولكن (سليم) مات بعد مدة، وبقي (فدعوس) على قيد الحياة إلى أن فقد على الصورة التي ذكرناها.

لولو بعد فدعوس..

وكان لابن صاحب البيت، وهو مهندس كهربائي، قط اسمه (لولو) ربّاه لنفسه بعد موت (فدعوس)، وهو من أغرب القطاط. ومما يحكى عنه أن صاحبه في سني تلمذته، سافر يوماً إلى حلب لدراسة الهندسة، وودّع قطّه وقبّله وأطعمه ذلك اليوم أطيب المآكل التي يحبها. وفي المساء انتظر القط عودة صاحبه كالعادة، ولكنَّ صاحبه لم يعد. فأخذ القط يتململ، ويروح ويغدو بين الباب وغرفة صاحبه، كأنه يبحث عنه. فحاول أفراد الأسرة تطييب خاطره، فأحضروا له أكله، ولكنه رفض أن يأكل لأنه اعتاد أن يأكل من يد صاحبه. وكان كلما سمع حركة في الشارع يهرول نحو الباب، وينتظر مدة، ثم يعود مكسور الخاطر. ولم يقبل بأن ينام عند أحد ولمّا آيس من رجوع صاحبه، انسل إلى الغرفة التي كان ينام فيها صاحبه، وصعد إلى التخت ونام فيه، وكان يعيد الكرة على هذا المنوال كل يوم، إلى أن سلا بعد أيام.

وقد كنت دائماً، ولا أزال، شديد الشفقة على القطاط لكثرة ما كنت أشاهد من حوادث التعذيب والتجويع والتشريد. وأذكر أنني كنت في زيارة لمدينة مراكش في المغرب الأقصى في شتاء ١٩٥٨، فمررت في أحد الشوارع فوجدت قطة سوداء هائمة في الطريق، هزيلة هزالاً شديداً، تترنح في مشيتها من الضعف والجوع، وكانت تسير على هذه الحالة وتبحث جادة عن شيء تأكله، فلا تجد شيئاً، رأيتها فوقفت أرقبها مدة، وأنا أشعر بالألم في نفسي على هذه المسكينة. فعمدت إلى صاحب دكانٍ هناك وقلت له: يا سيدي أترى هذه القطة المسكينة؟ فقال: وما بالها؟ فقلت: أترى كيف تبحث عن شيء تأكله ولا تجده، مع ضعفها وهزالها، وتترنح في مشيتها وهي على وشك السقوط من شدة الجوع ومن الوهن؟! فقال: أكثر القطاط يا سيدي على هذه الحال. فقلت: ولكنني لا أستطيع أن أسعف جميع القطاط في هذه المدينة، وإنما أريد إسعاف هذه القطة. فقال: وماذا تأمر؟ فقلت: أدفع لك شيئاً من المال، وأرجو أن تشتري بهذا المال كلّ يوم شيئاً تأكله هذه القطة، إلى أن تستعيد صحتها وقوتها، ولعلّها حينئذ تقوى على تدبير أمر نفسها. فأخذ مني مبلغ المال ووعد بأن يفعل كما طلبت. وذهبت أنا إلى فندقي.

هذا الفندق هو فندق المأمونية، وهو من أفخم الفنادق في المغرب لا بل وفي الشرق، وكان ينزل فيه السير ونستن تشرشل عند زيارته للكلاوي. وللفندق جنائن واسعة من أجمل ما رأت عيني.

وصلت إلى الفندق، وجلست في الحديقة أتناول الشاي بعد الظهر؛ ثم سرت في طرق الحديقة مدة طويلة إلى أن خيَّم الظلام وشعرت بالوحشة وهو شعور غريب يعتري الزائر والسائح في افريقية. وكنت قد شعرت بهذا الشعور المخيف حينما كنت في شمال نيجيريا.

دخلت إلى الفندق، ثم تناولت العشاء، وأويت بعد ذلك إلى غرفتي. وكنت متعباً فنمت بعد قليل، ورأيت في منامي حلماً مزعجاً. فقد رأيت نفسي في أحد طرق الحديقة في المساء، وإذا بأسد يخرج علي من وراء شجرة هناك مكشراً عن أنيابه متحضراً للوثوب عليّ. وفي تلك اللحظة مر بيني وبين الأسد قط كبير أسود، فما كان من الأسد إلا أن هجم على القط والتقفه بين فكيه، والتهى به عني، فهربت مسرعاً بقدر ما أستطيع، ونجوت. ولما أفقت في الصباح وتذكرت الحلم تعجبت من معناه، ولا أزال حتى الآن أتعجب.

ثم تناسينا القطط..

بعد الحوادث الفاجعة التي جرت بالقطاط التي اقتنيتها، قررت أن لا أقتني قطاً أو قطة بعد ذلك، وأيقنت أنني لا حظ لي في القطاط. وصرت أفكر أن اقتنائي لأي قط معناه الحكم عليه بالإعدام. وقلت في نفسي: إنني لا أريد أن أكون سبباً في موت القط الذي أقتنيه؛ إذا اقتنيته. وعلى هذا امتنعت عن التفكير بجلب قط أو قطة إلى البيت. وأفهمت زوجتي وأولادي بذلك. ووطدنا أنفسنا على هذا الأمر، ونسينا كيف يكون وجود القط في البيت. وتحدث أولادي مع رفاقهم في مدارسهم عن خطتنا الجديدة. ومضى على ذلك زمن طويل.

قط أسود من جديد

وفي أحد الأيام زارنا صديق لابني زياد في المساء وبعد قليل، دخل ابني علينا، وهو في أشد الفرح، وبين يديه قط أسود صغير، لا يتجاوز عمره الأسبوعين، وقال إن صديقه قد أتى بالقط هدية له. فقلنا بصوت واحد. أرجع القط لصاحبه. ولكن ابني تحير في أمره، واستحى من أن يعيد القط إلى صديقه، لأنه خشي أننا إذا رددناه أن يعدّ صديقه هذا العمل

إهانة منا له، وصاحت ابنتي الصغيرة بأنها هي تـريد القط، وهجمت عليـه واحتضنتـه. وهنا تغيـر الوضـع، وأصبحنـا في مـوقفٍ أحـرج من المـوقف السابق. إذ إننا لو تناسينا مسألة الإهانة، فإننا لا نتناسى ابنتنا الصغيرة التي لا تريد أن تتخلى عن القط. وبعد مداولة قصيرة قررنا إبقاء القط في البيت على أن يقوم إبني زياد وابنتي الصغيرة غادة بـالعنايـة به. ولكن ابني زيـاداً كان في ذلك الوقت يعد نفسه للذهاب إلى جـامعة غـلاسكو في اسكتلنـدة ولـذلك فـإن العنايـة بالقط وقعت على ابنتي غـادة. فقبلت هي ذلك بكـل سرور. وعلى هذا قبلنا الضيف الجديد.

ـ وبعد أن لعب القط مع الأولاد مدة، أخذنا نفكر في تدبير أمر منامه، وإحضار قفة فيها شيء من التراب يقضي القط حـاجته فيهـا. أعددنـا ذلك في الحـال؛ ولمّا جـاء دور البحث عن مكان لنـوم القط تلك الليلة، تنازع ابني مع ابنتي أي منهما سينوم القط عنده، وقـر القرار في النهـاية على أن ينوم كل واحد منهما ليلةً في فراشه. فنام في الليلة الأولى عند غادة.

وفي الصباح الباكر سمعنا حركة في الغـرفة المجـاورة، وسرعـان ما عرفنا أن غادة قد أفـاقت من النوم تـلاعب القط. وبعد ذلـك نزلت بـه إلى الـطابق الأرضي وأخـذت تسقيـه الحليب وتلعب معـه، وقـربتـه من القفـة ليقضي حاجته. ولم يكن بالطبع يفهم ما أرادتـه منه، فحملتـه ووضعته في القفة حتى قضى حاجته.

ثم نـزلنا جميعـاً إلى الـطابق الأرضي، ورأينـا القط الجـديـد يلعب ويمرح فأنسنا به نـوعاً مـا، ولو أن زوجتي كـانت ناقمـة لعودتنـا إلى تربيـة القطاط بعد الذي جربناه. على كل أخـذنا نفكـر باسم نسميـه به. فـاقترح أحدنا تسميته (لولو) ولكنه، لسواد لونـه الحالـك، كان أبعـد ما يكـون عن ذلك؛ واقترح آخر تسميته (سامبو) على اسم الزنوج؛ وهذا لم نوافق عليـه جميعاً. وبعد اقتراحات أخرى عديدة، لم يرق لنا جميعاً واحد منها، قررنا أن نسميه (بسين) باعتباره ذكراً، واتفقنـا على ذلك. غيـر أن زوجتي قالت

إنها ستسميه (بسينة) بالتأنيث على اعتبار أنه صغير، وهكذا كنا نسميه (بسين) أحياناً و(بسينةً) أحياناً أخرى (أو) (بَسّون). ولكن لما كبر (بسين)، وطال جسمه وتقوت عضلاته، وصار ذا حجمٍ كبير سمَّته إحدى الجارات باسم (مَفِستا Mephista)، وهو اسم مقتضب من Mephistopheles المعروف في القرون الوسطى بأنه أحد الشياطين السبعة الكبار، والمعروف في رواية (فاوست) التمثيلية للشاعر الألماني غوتي Goethe. ويقتضب هذا الاسم عادة بكلمة Mephisto وليس Mephista كما كانت تلك الجارة تقول وهي عجوز كان لها قط أحمر كبير، وكان هذا القط الأحمر كثيراً ما يقاتل قطنا ويغلبه ويحدث في وجهه وجسده جروحاً وخدوشاً، وذلك لأن قطنا كان صغيراً، ولم يكن بالرغم من شجاعته، يقوى على القط الكبير. إلى أن كبر هو بدوره، وصار يناجز القط الأحمر القتال، حتى تغلب عليه، وبدأ ينزل فيه أنواع الإصابات من جروح وخموش إلى غير ذلك فكانت صاحبته تخاف عليه من قطنا، ولا تسمح له بالخروج من البيت. وأخيراً جاءت إلينا وقالت إن قطنا يعتدي على قطها، وطلبت إلينا أن نحبس قطنا في البيت. فقلنا لها إن قطنا صغير بعد، وليس من المعقول أن يتغلب على قطها، ولكنَّ القطاط تتهارش أحياناً، فيغلب أحدهما مرة ويُغلَب مرة ثانية. فقالت الجارة إن قطنا شيطان أسود، لا يقدر عليه قطها. وعندئذ أطلقت عليه اسم مِفستا Mephista بمعنى الشيطان، وكانت إذا مرت بالبيت ورأت أحداً منا سألته عن مِفستا. وأردنا فيما بعد أن نسميه بهذا الاسم، ولكنَّ كثيراً من أصدقائنا كان يغلطون في الاسم، فأبقينا اسمه (بسين) ولم نغيره.

بقي (بسين) في البيت ذلك اليوم برعاية زوجتي. فكانت تضع له الحليب من وقت إلى آخر، وتعلمه كيف يقضي حاجته في القفة. وكان طول الوقت مرحاً يلعب بكل شيء، ويتسلق الكراسي وينزل عنها بسرعة، ويصعد الدرج ثم ينزل عنه. ولكنه كان إذا دخل غرفة الضيوف كان يتسلق

الكنابات والكراسي، ثم يمرن مخالبه في أغطيتها، مما جعل خيوطها تتنسل وتظهر على شكل عقد على سطح الأغطية وهذه مشكلة ضررها كبير.

وأعددنا له كرسيًّا صغيراً ينام عليه، فكان إذا نام، لصغر حجمه، لا يشغل إلاّ حيزاً صغيراً منه، وقلّما كان ينام في النهار كعادة القطاط إذا كبرت في العمر. بل كان يقضي الوقت في اللعب والصعود والهبوط. وكان يخاف أن يخرج من البيت، حتى إنه كان يخاف دخول المطبخ. وخوفه هذا أمان لنا من خروجه يوماً من البيت وضلاله، كما حدث في السابق، ولكنه كان لا يموء قط، ولذلك خفنا عليه أنه إذا دخل إحدى الغرف وأغلق الباب عليه، فإننا لا يمكن أن نعرف مكان وجوده، ولا هو يستطيع المواء حتى يعرفنا بمكان وجوده، فكنا دائماً نترك أبواب الغرف مفتوحة. وحدث مرةً أن (بسين) دخل غرفة الضيوف واختبأ تحت إحدى الكراسي، بدون أن نشعر به، وأغلقنا الباب بالغلط. وبعد مدة بحثنا عنه، فلم نجده، وظننا أنه خرج من البيت وضل طريقه، فبحثنا عنه في الشارع تحت الشجر وفوقه، وتحت السياج فلم نجده، وبقي مفقوداً سحابة اليوم، إلى أن زارنا ضيف فمرّ بشباك غرفة الضيوف فرأى القط قاعداً على الشباك خلف الستائر، فنبهنا إلى ذلك ففتحنا الباب وأخذناه وأسقيناه حليبه.

كبر القط بعد أشهر، وكبر جسمه، ولم يعد الكرسي الصغير يسعه، فاستعضنا عنها بكرسي أكبر منه، وأخذ يظهر ميلاً إلى الخروج من البيت، فكان يخرج فعلاً ويتسلق الشجر في الجنينة أو في الشارع.

وكنا نخاف في أول الأمر، إذا نحن أطلقناه في البستان أو في الشارع، أن يضل طريقه لصغر سنة.وجهله بالمنطقة، فأخذناه يوماً إلى البستان وربطنا حبلاً طويلاً دقيقاً في رقبته، وربطنا الطرف الآخر في إحدى قوائم طاولة كانت هناك، ثم تركناه يمرح ويلعب في نطاق محدود. وبعد مدة من الوقت عادت زوجتي لتتفقده، فلم تجده، ورأت أن الحبل قد

انحل من قائمة الطاولة. ولكن أين ذهب القط؟ بحثت عنه في البستان، وفي السياج فلم تجده. وسألت الجيران عنه، فقالوا إنهم لم يروه. وخافت زوجتي أن يكون القط قد هرب والحبل في رقبته، وعلق طرف الحبل في شجرة أو عرق، فشدّ على عنقه وخنقه. فاحتارت ماذا تفعل؛ والمصيبة في الأمر أن القط ليس له صوت يستعمله للمواء لينبه على مكانه.

وبينما كانت في هذه الحالة تفكر ماذا تفعل، إذا بجارة من الجانب الآخر تناديها وتسألها إذا كانت قد فقدت قطًّا أسود وبرقبته حبل، وأسرعت زوجتي في الحال وتناولت القط، بعد أن كان قد أوشك على الاختناق لولا أن أسعفته الجارة وهو في تلك الحالة. فعنّفته زوجتي وأدخلته البيت، فانسل مسرعاً واختبأ تحت أحد الكراسي لا يتحرك..

والغريب أنه لم يكن يخاف من الكلاب، بل كان يحب أن يلاعبها. فكان إذا رأى كلباً صغيراً مارًّا في الشارع يختبىء له ويلطأ في الأرض، كما يلطأ القط للفأر، ثم يثب عليه. وكثيراً ما كانت الكلاب تفزع منه، وخصوصاً منها الكلاب الصغار.

خصي القطط

وزارتنا يوماً جارتنا، ورأت قطنا، فقالت إنه يجب إجراء عملية له وهو صغير حتى لا يتغيب عن البيت في طلب القِطاط الأناثي في بعض أشهر السنة؛ وعادةً ما يغيب القط في هذا الموسم أياماً، وقد يضل طريقه ولا يعود، وحينئذٍ لا بُد من إخبار الشرطة عن ذلك. وأفهمتنا الجارة أن قطهم مخصي لا يتبع القطاط الأناثي أبداً، ولذلك يبقى في البيت. وقد فكرنا نحن في الأمر، فقررنا عدم إجراء العملية لأن معنى ذلك حرمانه من إحدى ملذات الدنيا لا لشيء إلا لأننا نريده في البيت دائماً حتى نتسلى به. وهكذا كان، فإن القط ظلّ بدون خصي، وبذلك كانت له الفرصة لإرضاء شهوة من شهواته.

وبمناسبة الكلام عن قط الجيران، فإن القطاط المخصية من هذا النوع تكون وديعة وغير شرسة، وتقضي معظم الوقت في النوم، مع ملازمة البيت. وقلّما تكون هذه القطاط ميّالة إلى الصيد، وإن صادت فإنها لا تأكل صيدها من العصافير والفئران.

فِرْدي.. صيّاد ماهر..

وكان قط الجيران ماهراً بصيد العصافير من الحديقة، فكان إذا رأى عصفوراً تسلّل إليه بخطوات وئيدة هادئة، إلى أن يقترب منه فيقفز عليه ويأخذه بفمه، فلا يفلت منه، وبعد ذلك يلاعبه ويتناوله بمخالبه، حتى يميته، ثم يتركه ولا يأكله. وكان إذا اصطاد فأراً، يتركه مدة، فيبقى الفأر ساكناً في مكانه إلى أن يشعر بشيء من الأمان، فيتحرك قليلاً يريد الفرار، فيهمر له القط فيعود الفأر إلى سكونه؛ ثم يحاول الفرار مرة أخرى ويعدو، وسرعان ما يقبض عليه القط، ويتلقفه بين مخالبه، وينفضه أحياناً، أو يضع يده عليه، أو يأخذه بفمه. وهكذا إلى أن يفقد الفأر الحياة، ومتى وثق القط من ذلك تركه ولم يأكله.

ولهذا القط حكاية تثبت نظرية الجاحظ في أن ولاء القطاط هو للمكان لا للسكان، فإن جارنا، وكان صاحب شركة أو مديرها، أصيب بالذبحة الصدرية، وصار متعرضاً لنوبات تعتريه على غير موعد. فترك العمل والتزم البيت. ولم يكن لديه أحدٌ يبقى معه في أثناء النهار، لأن ابنته العزباء واسمها (دوروثي) كان لها عمل في إحدى شركات الكهرباء في لندن يضطرها إلى التغيب عن البيت طول النهار في خمسة أيام من الأسبوع، عدا يومي السبت والأحد، وكانت هي الشخص الوحيد الذي كان يساكنه في البيت وله ابنة أخرى متزوجة وتسكن خارج لندن، وكان عنده قهرمانة تشرف على البيت، كان أولادي يسمونها (العجوزة) ولكن هذه أصيبت بمرض في المفاصل فتركت الخدمة وسكنت مع ابنتها خارج

البيت، فبقي الجار مع ابنته، ولكنه حينما ترك العمل والتزم البيت، أصبح يسكن البيت وحده في أثناء النهار، ولم يكن له أنيس سوى القط الذي تحدثنا عنه واسمه (فردي).

وأخيراً قررت ابنته أن تنقله من لندن إلى بيت ابنته الثانية المتزوجة في خارج لندن. فتحملوا من المكان، وأسفنا كثيراً على خسارة جيرتهم، وأخذوا معهم (فردي)؛ وحاولوا في البيت الجديد أن يوفروا للقط جميع وسائل الراحة، ويعودوه على المسكن الجديد. ولكن (فردي) لم يكن مسروراً، وكان يعرب عن حزنه بأن كان يضرب عن الطعام أحياناً وينزوي في ناحية من البيت أحياناً أخرى. وظل على هذه الحالة أياماً. وفي يوم من الأيام، بحث أصحاب البيت عن (فردي) فلم يجدوه ولم تكن عادته الخروج من البيت الجديد. فانتظروا عودته طول ذلك النهار وفي اليوم التالي، فلم يعد، وأدركوا حينئذٍ أنه هجر البيت وحاول العودة إلى بيته القديم في لندن. وجاءت (دوروثي) إلينا وسألتنا إذا كنا رأينا (فردي)، وأخبرتنا خبر هربه من البيت. وبعد أيامٍ جاءت (دوروثي) وقالت إنها رأت (فردي) في أحد شوارع لندن يتسكع فيه هائماً على وجهه كالمتوحش، فأرادت أن تلحق به، ولكنه لاص منها ودخل في زقاق واختفى بين البيوت. وأخبرت هي الشرطة بذلك، ولكن بدون جدوى. ولا يعلم أحد كيف كانت نهاية هذا القط؛ ولعلّه مات غريباً عن أهله ومنزله، بعد أن عاش معهم فيه خمس عشرة سنة. ولا تسل عن حزن أصحابه لفقده، وخصوصاً حزن صاحب البيت الذي ربّاه طول هذه المدة وسهر عليه، وكان أنيسه الوحيد بعد تقاعده والتزامه البيت.

القطط والفئران..

والسكون الذي يعتري الفأر، أمام القط، شبيه بالسكون الذي يعتري الإنسان بين يدي الأسد. فقد ذكر المكتشف الجغرافي الإنكليزي

Livingstone عن حادثة جرت له مع أسد في افريقية نهشه نهشة شديدة، فشعر وهو ملقًى على الأرض والأسد مهيمناً عليه بحالةٍ من الذهول فقدَ معها خوفه من الموقف، واعترته غيبوبة كأنه في حلم، ولم يشعر بألم أو بفزع، بل استسلم واستكان وسكنت جوارحه، مع إدراكه التام لوجود الأسد وعدم طاقته على رد العادية. وقال هذا المكتشف إن هذا الموقف لعله يكون شبيهاً بموقف حيوان ضعيف أمام حيوان قوي مفترس، وقال إن هذا الشعور في مثل هذا الموقف نعمة من الله أنعمها على مخلوقاته ليخفف عنها الألم عند الموت.

وقرأت حكاية خرافية بولندية على لسان الكلب والقط والفأر وسبب العداوة بينهما، هذه خلاصتها:

في الأيام القديمة كانت الكلاب والقطاط والفئران تعيش بعضها مع بعض في وفاق تام. وصادف مرة أن الكلاب سألت القطاط أن تحفظ لها بعض الوثائق ذات الأهمية البالغة في مكان حريز إلى أن تعود وتستردها.

فنظرت القطاط إلى كومة الأوراق القديمة، فقالت في أنفسها: «لماذا نتعب بهذه القصاصات القديمة من الورق! لنسأل الفئران أن ترعى هذا الكنز الغريب، فهي إنما تصلح لذلك!» وهكذا أودعت القطاط الأوراق لدى الفئران، ووعدت الفئران بأن تراعي تلك الوثائق بعين العناية.

وحدث في أثناء ذلك فصل من الشتاء، كان قاسياً، وعانت الفئران من الجوع والبرد معاناة شديدة. فلما غلب عليها اليأس أخذت تقرض الوثائق القديمة شيئاً فشيئاً، ووجدت الفئران في الورق لذة. فظلت تقرضه وتقضمه حتى أكلت القسم الأعظم منه، ومزقت ما بقي منه حتى جعلته مزقاً وشراشر ولم تترك منه ورقة بحالها.

وفي أحد الأيام جاءت الكلاب تطلب الوثائق لتستردها، فذهبت إلى

القطاط، ولكن القطاط قالت: «إننا رأينا أنه كان من الآمن إعطاء الوثائق إلى أصدقائنا الفئران لتحفظها، وقد حفظتها لنا. والآن سنذهب ونأتي بها».

فذهب الجميع إلى الفئران، ولكنهم لم يجدوا إلاَّ قصاصات ومزقاً مبعثرة على الأرض.

فهاجت هائجة القطاط، وأقسمت أن تقتل كل فأر تلاقيه في طريقها. وغضبت الكلاب غضباً شديداً، وأخذت تطارد القطاط تريد أن تنتقم منها، فهي حتى هذا اليوم تطارد القطاط، وحتى هذا اليوم لا تفتأ القطاط تطارد الفئران.

أما قطنا، فكنا أحياناً نطلقه وهو صغير وراء فأرٍ، فكان لا يجري وراءه، ولا يفهم أنه يجب عليه أن يجري وراءه. أما العصافير فكان ما يستهويه منها أنها تتحرك وتنتقل بسرعة وتطير من مكان إلى آخر. فكان يحاول اصطيادها، ولكن كان يتسرع، وبذلك يخيف العصفور ويطيره. ثم يحاول أن يجري وراءه، ولكنَّ العصفور يكون أسرع منه. وأخيراً، يفقد الأمل من اصطياده فيقعي، ويكتفي.

مدام تيوفيل والببغاء!

وتوجد في هذه المناسبة حكاية لطيفة عن قطة للكاتب الفرنسي Théophile Gauties في القرن التاسع عشر، كان يسميها مدام تيوفيل، قال هذا الكاتب:

«أودع عندي يوماً من الأيام صديق من أصدقائي ببغاء، لأرعاها له أثناء تغيبه بضعة أيام، وقد شعر الببغاء بأنه قد انتقل إلى عالم جديد، فارتقى إلى أعلى مجثمه واستقر هناك صامتاً مرتعشاً.

ولم تكن مدام تيوفيل قد رأت ببغاء من قبل، ولذلك فإن هذا

المخلوق، بسبب هـذه الجِدّة، أثـار استغرابهـا الشـديـد وعجبت منه أي عجب، فأخذت تنظر إليه وعليها امارات التأمل العميق، تستعيد في ذهنها جميع ما تعرفه من صورٍ وأفكار عن الحيوانات، كانت قد كونتها وهي على السطح أو في ساحة البيت أو في البستان؛ وكـانت هذه الصـور والأفكـار التي كانت تتردد في خاطرها ترتسم خيالاتها في عينيها وهي تطرف بهمـا، وكنت أنا أكاد أقرأ في عينيها كما لو أنها كانت تصرح بصوتها، خلاصة لما كـانت تجـريـه من التفحص والاستكشـاف. ثم قـالت في نفسهـا: «هـذا المخلوق العجيب لا يمكن قطعاً أن يكون دجاجة خضراء».

ولما استقر قـرار مدام تيـوفيل على هـذا الرأي، نـزلت عن الطاولـة حيث كانت قد اتخذت لها مُطَّلعاً ومـرقباً، ثم ذهبت إلى زاويـة من الغرفـة وجثمت هناك، ملصقة بطنها بالأرض، ومبرزةً مـرفقيها، ومـطأطئة رأسهـا، وقد مدت عمودها الفقري كالفهد الذي يرقب الغزلان وهي تطفىء ظمأهـا في إحدى البحيرات.

وكان الببغاء يتتبع هذه الحـركات بقلق واضـطراب؛ فنَفَّش ريشه، وقعقـع السلسلة التي كانت في رجله، ورفـع رجله الأخرى، وأخـذ يشحذ منقاره على حرف التنكة التي كان يأكل منها، وأخبرته الغريـزة أن عدوًّا لـه يفكر بعمل خبيث.

وكـانت عينا القـطة مثبتتين على الطائـر، بشدةٍ وإعجـاب، كـأنهمـا تتكلمـان لغة يفهمهـا الببغاء فهمـاً تامًّـا، لا لبس فيها. وقـالت في نفسها: «ولو أن الدجاجة خضراء، فهي طيبة المأكل ولا بد».

وكنت أنـا أتابـع هذا المشهـد باهتمـام، على استعداد للتـداخل إذا دعت الحاجة. وفي ذلك الوقت، اقتـربت مدام تيـوفيل مسـافة أخـرى من الببغاء، وأخذ يـرتجف أنفها، وأغمضت عينيهـا نصف إغماض، وبسـطت مخالبها ثم قبضتها. وجرت في عمودها الفقـري اهتزازات خفيفـة، فكانت

أشبه ما تكون برجل نهم قاعد أمام فروج محشي لذيذ الطعم، تتلذذ في الخيال بالوجبة الروية النادرة التي كانت على وشك تناولها. فإن تلك الأكلة، بما لها من الجدة ومن الاستهواء، كانت تدغدغ اشتهاءها للطعام.

وفجأة انحنى ظهرها انحناء القوس الموتر، وقفزت قفزة مرنة، حملتها إلى أسفل المجثم. وأدرك الببغاء الخطر الذي يهدده، فقال بصوتٍ منخفض رزين: «هل أفطرت يا يعقوب؟».

سمعت القطة هذه الجملة، فتولاها الرعب، وقفزت مرتدة عن مكانها. وبلغ بها الفزع مبلغاً لا يحدثه زعيق الأبواق، ولا سقوط الصحون وتحطمها، ولا طلقة مسدس بالقرب من أذنها. فانقلب جميع ما لديها من أفكار عن الطيور. فقالت في نفسها: «هذا ليس بطائر، بل هو سيد؟ وكيف لا. وهو يتكلم! ثم بدأ الببغاء بالغناء، بصوت مرتفع عظيم، بعد أن أدرك أن الذعر الذي سببه كلامه هو خير واسطة للدفاع عن نفسه.

وعندئذٍ ألقت القطة في اتجاهي نظرة تستفهم بها عن هذا الأمر العجيب، ولما لم يرضها جوابي، اندست تحت الفراش، وبقيت طول النهار هناك.

وفي اليوم التالي، حاولت مدام تيوفيل محاولة فاترة ثانية، ولكن النتيجة كانت كالأولى.

وبعد ذلك، استسلمت لليأس من هذا الأمر، وصارت تنظر إلى الببغاء على أنه رجل يجب أن يعامل بالاحترام.

عودة إلى سيرة «بسين»..

وفي أحد الأيام، بينما كان القط في الحديقة يلعب بين الحشائش والأزهار ويتسلق الأشجار، رأى جرذاً يكاد يكون في الحجم مساوياً له. فأسرع نحوه يريد أن يلاعبه، وكان من المنتظر كالعادة أن يفر الجرذ منه،

ولكن الأمر كان على العكس من ذلك، فإن الجرذ ظلّ في مكـانه حتى إذا اقتـرب منه قـطنـا هجم هـو عليـه، فـرجـع القط عنـه؛ ثم عـاد القط إلى الهجوم، وعاد الجرذ إلى الهجوم في المقابل، وهكذا دامت هذه المساورة بينهمـا مدة دون أن يتغلب أحـد على الآخر. والـظاهر أن الجـرذ لـم يجـد متعـة في هـذه المـلاعبة، فـانسـل بين الحشـائش واختفى تحت أشجـار السياج. ولعلّه عاد إلى جحـره. وبقي قطنـا في مكانـه مستغربـاً من سلوك



هذا الحيوان ومن سوء ذوقه في أصول اللعب والمصاحبـة. وهذه أول مـرة أرى فيها قطاً وجرذاً يتلاعبـان وكنت رأيت من قبل قـطاً يفر من جـرذ خوفـاً منه. وهذا من الغـرابة بمثـل غرابـة الكلب الذي يـلاعب القط ولا يؤذيه، ويأكل معه، وينام بجانبه. وقد رأيت هذا المنـظر كثيراً في لنـدن وفي بلاد الإنكليز.

نعود الآن إلى متابعة سيرة القط (بسين). . جاء هذا القط إلينا صغيراً ثم نما نمواً سريعاً وطال جسمه وامتلأ واشتد نشاطه شيئاً فشيئاً، وسرعان ما بدت عليه إمارات الشراسة والقوة بعد أن كان وديعاً لعوباً، وكان أبرز شيء فيه كبر رأسه ثم تسرعه إلى الهجوم، وكنا لذلك نداريه خوفاً من عاديته. وكنا نشتري له طعام الحليب واللحم المحفوظ في العلب كما نشتري المواد الغذائية لطعامنا، وكان له شغف خاص بالسمك يلتهم لحمه بشره، وكان إذا جاع لا يصبر على أحدنا حتى يفتح له علبة اللحم، بل كان لشدة شرهة يضع يده على العلبة وهي تُفتح كأنه يريد أن يقول: استعجل (أو استعجلي) فأنا جوعان.

وكانت له عادة قبيحة وهي أنه كان يبول في البيت في أي مكان أراد لا يتورع في ذلك عن شيء، وحاولنا أن ننهاه عن ذلك بشتى الطرق من دون جدوى، وقر قرارنا أخيراً أن نجعل له شيئاً كالسروال يلبسه حول الجزء الخلفي من جسمه حتى إذا بال، بال فيه. وهذا ما فعلناه ونجحنا بعض الشيء فيه، وكنا بطبيعة الحال نغير السروال بسروال نظيف آخر، إلا أنه كان يكره السروال وكان يعافس ويرافس ويعض الأصابع كلما حاول أحدنا إلباسه اللباس. بل كان ينام على الأرض ويحاول تمزيق اللباس بأسنانه. ودام الحال على ذلك إلى أن كبر وصار يخرج إلى الحديقة ويبول هناك. واتفق مرة أن زارنا صديق لنا هو السيد محمد السعداني، وصار فيما بعد سفيراً للمغرب في لندن، فرأى القط ورأى سرواله عليه فأخذته الدهشة لغرابة المنظر، ثم شرحنا له الأمر.

كان قطنا في أول أمره يخاف من الخروج إلى خارج البيت، وكان يخاف أكثر ما يخاف مجيء الزبّالة لأخذ الزبالة، فكان إذا رآهم قادمين يهرب إلى الطابق العلوي ويختبىء تحت سرير هناك ويظل مختبئاً إلى أن تهدأ الحركة ثم ينزل. وكان يكره الضجيج، ولعله كان يظن أن الضجيج معناه صياح عليه، وكان يكره الغريب، وإذا رأى شخصاً غريباً في البيت

هرّ في وجهه وتنفش وكشر عن أنيابه، ويظل على هذا النفور والاشمئزاز مدة إلى أن يهدأ روعه بعد المداعبة والملاطفة والتهدين. واتفق مرة أن جاءت لزيارة ابنتي غادة صديقة لها في المدرسة ومعها كلبها الصغير. فلما رأى (بسين) الفتاة ورأى كلبها أرغى وأزبد وتنفش وهرّ فخافت الفتاة وخاف كلبها فأسرعت بالخروج به. هذه الحادثة ظلت في ذاكرة (بسين) أياماً، فإنه كان إذا دخل الغرفة التي كانت فيها الفتاة وكلبها تنفش وكشر عن أنيابه ورفع ذنبه، كأنه تذكر.

وكان له عادة غريبة، فكان لا يشرب من الإناء الذي نعده له ليشرب منه، بل كان يصعد إلى حنفية في المطبخ ويضع فمه على فتحة الحنفية ويتلقط بلسانه قطرات الماء منها. ويظل يفعل ذلك حتى يروى ثم ينزل، ولما رأينا منه ذلك رفعنا إناء الشرب الذي أعددناه له وتركناه يشرب من الحنفية.

ومرض (بسين) يوماً واستدعينا لمعالجته طبيباً بيطرياً فوصف لنا دواء ننقطه في فمه، وكانت زوجتي تتكفل بإعطائه الدواء، فتأخذه وتبطحه على الأرض وتمسك بيديه ورجليه وتفتح فمه وتنقط الدواء فيه ثم تفلته، فيهرب ويأخذ في التفتفة يريد أن يلفظ الدواء من فمه. ولما تكرر ذلك ربط القط بين زوجتي والدواء فكان إذا رآها قادمة، ولو أنها لم تكن تريد إعطاءه الدواء، كان يفزع وينهزم يطلب مكاناً يختبىء فيه، ولا يهدأ روعه إلا بعد زمن، ثم يخرج ولكن على حذر.

وكان لعوباً جدًّا في صغره، يلعب بأي شيء إذا لاعبه أحد منا. وكان يلعب مع ابنتي غادة كثيراً. وكانت تهيىء له خيطاً طويلاً وتربط في طرفه كرة وتلقي الكرة على أرض الغرفة فينطلق هو يسرع إلى الكرة فيمسكها بيديه وفمه ويأتي بها إلى غادة. ثم كانت غادة تلاعبه لعبة أخرى وذلك بأنها كانت تلقي بالكرة تحت الكرسي فكان (بسين) يبحث عن الكرة حتى يجدها تحت الكرسي يستولي عليها من الخيط، ثم كانت تضع

له الكرة خارج باب الغرفة فكان يخرج إلى خارج الغرفة ويأتي بالكرة في فمه. والقطاط عادة أقل ذكاء من الكلاب، فالكلب يأتي بالكرة من خارج الغرفة، وقد لا يفعل القط مثل ذلك إلا إذا كان ذكياً. وقطنا كان ذكياً ولا شك.

وبلغ من ذكاء هذا القط أنه كان يفتح باب المطبخ بنفسه إذا أراد أن يأكل أو يشرب فكان يثب على رجليه ويلتصق بالباب ثم يشد بيديه على يد الباب ويجذبها إلى أسفل فينفتح الباب ثم ينزل على يديه ويدخل. ومن ذكائه أيضاً أنه كان يحب أن ينام في الحضن، فكان ينام في حضني وكنت وهو في حضني أملس له رأسه وظهره وكان يلتذ بذلك ويسكن إليه. فإذا توقفت عن التمليس كان يرفع رأسه وينظر إلي نظرة المتسائل كما لو أنه يقول لي: لماذا توقفت. فإذا عدت إلى التمليس سكن واطمأن.

وله عادة أخرى تدل على ذلك، فإنه كان إذا رآني جالساً أقرأ كتاباً كان يقفز ويستلقي على الكتاب فلا يدعني أقرأ. وكنت إذا رفعته عن الكتاب ووضعته على الأرض كان يقوس ظهره ويتمطى ثم يخرج من الغرفة كالحردان. وكنت إذا جلست إلى مكتبي أكتب كان يقفز إلى حضني ومنه إلى المكتب ويستلقي على الورقة التي أكتب عليها.

ومن غرابة أطباعه أنه كان يسهر الليل وينام في النهار، وكان في أثناء الليل يجول في البيت وحده ثم يطوف على من في البيت واحداً واحداً، يندس في فراش هذا وقتاً ويذهب إلى فراش الآخر فيندس فيه وقتاً وهكذا إلى أن يدرك أن أهل البيت نيام أو أنهم لا يريدون أن يلاعبوه فينزل ويأوي إلى كرسيه وينام.

وله في نومه هيئة غريبة، فإنه كان ينام على ظهره ويتمطى بيديه ورجليه مدة ثم يسكن ولكن تبقى يداه مرفوعتين بعض الشيء، وإذا نُبِّه من نومه كان يتمطى أولاً ثم يجلس على بطنه ويتلمس ثم ينهض. وإذا نزل

إلى المطبخ بـدأ فطوره بشـرب الحليب فإذا شـرب الحليب لم يأكـل شيئاً بعده إلا بعد فترة من الراحة. وكان الواحد منا إذا عرض عليه الأكل يقـول له: تاكيلي بسينـة؟ أي: أتأكلين يـا بسينة؟ وكنـا نخاطبـه بالتـأنيث تحبباً. وكانت له لذة غريبة في أكل الزيتون، ولم يكن يـأكل الـزيتون فعـلاً ولكنه كان يلحس حبة الزيتون أو يضعها في فمه ويديرهـا فيه وقتـاً ثم يخرجهـا، ولا ندري إذا كان هو يحب زيت الزيتـون أم يحب الحموضـة في الزيتـون لأن الزيتون عندنا كان مخللاً.

وكان (بسين) عدا عن حبـه الجلوس في الحضن يحب الصعود على الكتفين والتمطط في جلوسه على الكاهل أو أعلى الظهر عند الرقبـة، كما



القط متربعا على كاهل الكاتب

في الصورة المنشورة هنا. وهذا غريب من القطاط فإنها تتسلق الأشجار والجدران ولكنها تخشى البقاء على الشجرة مدة طويلة. وكان له عادة أخرى وهي أنه كان يحب الإندساس في الأماكن الفارغة، فكان إذا رأى خزانة مفتوحة اندس فيها ونام. وإن رأى جاروراً في طاولة أو مكتب دخل فيه على ضيق الجارور وتعصّر فيه وتطوّى ونام. وأذكر أنه مرة كان باب الثلاجة مفتوحاً فمد رأسه يريد الدخول ولكنه سرعان ما تراجع لما شعر بالبرد.

وكانت له عادة اللحاق بأحدنا إلى الدكان كالكلب أو اللحاق بنا في الشارع. وكان هو لا يجد بأساً في ذلك إذا كان الشارع خالياً نسبيا وليس فيه ما يزعجه من سيارات وزعيق الأبواق. وكنا نأخذه في الليل بعد العشاء نمشي في الشارع فكنا نتركه يمشي معنا وحده وإما كنا نحمله.

وكان يكره الأولاد الصغار بصورة خاصة، فكان إذا رأى ولداً صغيراً في البيت عمد إليه وضربه بيده على ساقه أو شده من ثوبه، والولد مع ذلك كان كعادة الأولاد يقبل عليه يريد أن يلاعبه، والقط نافر منه إلى أن يضربه فيفزع الولد منه ويبكي. وعدا عن الأولاد الصغار فإنه كان يكره الكلاب الصغار، وكان يترصد لهذه الكلاب في الشارع ويكمن لها حتى إذا مرت به هجم عليها، وقد ذكرنا شيئاً من ذلك.

وكنا إذا غبنا عن البيت وكّلنا أحداً يأتي يطعمه ويسقيه، وكان يكره منا هذا الغياب، فصار هو يغيب بالأسبوع أو بالأسبوعين ثم يعود. واتفق أننا غبنا أسبوعاً ووكّلنا به صديقاً لنا سكن في البيت في غيابنا. وقال لنا هذا الصديق إن القط كان بائساً طول تلك المدة لا يأكل ولا يشرب إلا قليلاً. وفي هذه المدة اشتهر أمر القط بين الأصدقاء وصار في نظرهم أحد أفراد الأسرة فكانوا إذا زارونا أو كلمونا بالتلفون يسألون عنا ويردفون ذلك بالسؤال عن القط. وأذكر أن محمد كمال إذا جاء إلى لندن واتصل بنا تلفونياً كان يفتتح كلامه بقوله: كيف حال القط؟ وكان أولادي لما تفرقوا

في دارستهم في الجامعات البريطانية لا ينسون في مكاتيبهم السؤال عن البسّ.

وكان في هذا القط كراهية للقطاط الأخرى وللكلاب الصغيرة وللأولاد الصغار وللغرباء أيضاً، كما ذكرنا سابقاً. وكان يكره أيضاً الذباب والفراشات. فكان إذا سمع بذبابة أو رآها قامت قيامته، ولم يهدأ له بال حتى يقضي عليها أو يطردها، وكذلك الحال مع الفراشة، فإنه كان يثب إلى فوق مسافة بعيدة حتى يقبض عليها، وربما وقع على الأرض من وثبته هذه.

ولمّا كبر (بسين) طال جسمه وعظم رأسه واشتد بأسه وصار أهدأ من ذي قبل ولكن في منظره شيء مخيف، حتى إننا كنا نهابه، وكنا نفهم مراده فلا نعارضه. وأذكر أنه كان يحب أن ينام على حضني، فكنت أذوده عن ذلك، إلا أنني كنت أرى منه امارات الغضب فأخضع لطلبه، ولا سيما إذا هرّ. وكذلك الحال كان مع زوجتي. ثم تفرق أولادي في الجامعات ولم يبق في البيت إلا زوجتي وأنا فكان (بسين) على ما أعتقد يشعر بالوحشة، ولعلّ هذا هو الذي حدا به إلى الغياب عن البيت أحياناً، وأذكر أنه غاب عن البيت يوم الخميس في ١٩٦٣/٣/٢٨ وعاد إليه الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة في ١٩٦٣/٤/١٢.

وسافرنا في سنة ١٩٦٤ إلى مصر والبلاد العربية وتركنا القط في البيت ووكّلنا بإطعامه والعناية به صديقة لنا تزور البيت وتتفقده، وكان ذلك في الشتاء، وتركنا له شباكاً مفتوحاً يخرج منه ويدخل. واتفق أن زارت ابنتي غادة البيت فوجدته بارداً موحشاً ووجدت القط في حالة يرثى لها فأشفقت عليه في ذلك الشتاء القارس وأطعمته وأدفأته مدة بقائها في البيت، ثم تركته. ويظهر أن القط ذاق الأمرين وحده فترك البيت ولم يعد إليه ولما عدنا لم نجده في البيت، ولم نستغرب، إذ كنا نعرف مقدار تعلقه بأهل البيت وشدت محبته لهم وغيرته عليهم وتذكرناه في مناسبات عديدة

وأسفنا لفراقه، ومن جملة ما ذكرنا عنه أنه كان إذا أراد قضاء حاجة لم يقضها في بستاننا بل كان يذهب إلى بستان الجيران ويقضيها هناك، وشعر به الجيران فطاردوه، فأخذ يقضيها في بستانهم في الليل دون النهار. وتذكرنا أيضاً قتاله مع القطاط الأخرى في المنافسة على قطة في الحي، وكيف كان يأتي أحياناً مجرّحاً. وتذكرنا أشياء كثيرة عنه، ثم نسيناه، حتى حان مني يوماً التفاتة إلى قط يسير بحذاء جدار منخفض على الرصيف، وإذا هو (بسين) فناديته باسمه فالتفت قليلاً ولم يقف وظل سائراً في شارع قريب من الشارع الذي فيه بيتنا. وخرجت زوجتي بعدي إلى المكان تبحث عنه فوجدته فنادته باسمه فلم يلتفت إليها، ورأته كما رأيته أنا في حالة مزرية من الوسخ والقشف والإهمال. وتركناه، وكنا نراه أحياناً، ويغيب عنا أحياناً أخرى. وسافرت زوجتي إلى الصومال لزيارة ابنتها سهام هناك وبقيت أنا في البيت وحدي. واغتنمت غياب زوجتي فأحضرت عمالاً لإصلاح البيت. وفي يوم من الأيام فتحت باب البيت المطل على الشارع فرأيت القط قاعداً على حصيرة عند عتبة الباب. فلما فتح الباب قام ودخل البيت وذهب رأساً إلى المطبخ فتبعته واستغربت من هذا القط كيف يعود إلى البيت بنفسه بعد غياب ما يقرب من سنتين، وكيف أنه لم ينس البيت، وكيف أنه دخله دخول عارف به كأنه لم يغب عنه إلا ساعة أو بضع ساعة؟ تبعته إلى المطبخ وأخذت صحناً مجوراً ووضعت فيه شيئاً من الحليب فشرب قليلاً دون عادته، ثم عرضت عليه طعاماً كان موجوداً عندي فنفر منه قليلاً، ثم جاء إلى كرسي في زاوية الغرفة المجاورة للمطبخ وألقى نفسه هناك يريد أن ينام، ولكنه كان قلقاً ينتابه أحياناً عطاس مع خرخرة في الصدر وسيلان من المخاط من الأنف ومن اللعاب من الفم. فعرفت أنه مريض وأن مرضه مرض الموت، فكنت أجلس في كرسي قبالته أرقبه في حالته تلك وكان يقوم متثاقلاً ويأتي إليّ يريد أن يجلس في حضني كما كان يفعل فكان يهم بأن يقفز إلى حضني كما كان يفعل ولا يقدر لضعفه، فينام عند قدمي. وكنت أحياناً أشفق عليه وكنت أحمله وأضعه في حضني

وأضع تحته شرشفاً يصون ثيابي من مخاطه ولعابه. وكانت شهوته إلى الطعام ضعيفة فأخذت أنوع له الطعام حتى أعرف لون الطعام الذي يحبه، ثم فهمت أنه يحب السمك، فأخذت أشتري له سمكة كل يوم أسلقها وأطعمه إياها. وظل على هذه الحال عدة أيام، ثم ظهر له ضيق في التنفس وتهيج ولاحظت أنه لا يستطيع المشي طويلاً لضيق نفسه. ثم أخذ يهزل ويفقد لحمه شيئاً فشيئاً حتى أصبح جلداً وعظماً، وكنت إذا لمسته لا أجد إلا جلداً قاحلاً وعظاماً شاخصة وبرزت أضلاعه في صدره. وراعني منه أنني رأيت في جنبه تورماً بقدر الجوزة ربا وانتبر حتى صار كالبرتقالة الصغيرة. وأخيراً حملته في سلة وذهبت به إلى طبيب بيطري على مسافة غير قليلة من بيتي، ففحصه الطبيب وقال إنه مصاب بالسرطان في كليته أو في رئته لا أدري، وهو مائت لا محالة. وقال لي الطبيب إن القط يصاب أحياناً بمرض الأنفلونزا وقد لا يبرأ منه ويموت، وقد يصاب بالسرطان. وأخبرني الطبيب أن القط يعاني آلاماً بسبب السرطان ويعاني ضيق نفس شديد قد يخنقه، وقال إنه لا علاج له لأنه سيموت. فرجعت به إلى البيت وقلت في نفسي: سبحان الله، قط يهجر البيت ويهيم على رأسه في الشوارع وبين البيوت حتى إذا أيقن بالموت عاد إلى بيته الأول. فمن أدراه أنه سيموت، وكيف حنّ إلى بيته الأول في آخر أيام حياته؟ نعم هذا غريب ولا أزال أقول إنه غريب، بل أغرب من الغريب. أما أنا فقد تملكني الجزع وأثر في نفسي أن أرى هذا القط يذوب بين يدي يوماً بعد يوم في طريقه إلى الموت. فحزنت وتألمت وأثر ذلك في مأكلي ومشربي ومنامي، وصرت فزعاً في صحوي وفي نومي كلما ذكرت القط أو حلمت به. وجاءت لزيارتي وأنا في تلك الحالة ابنتي وكانت طبيبة فرأت مني ما هالها من الضعف والهزال. وعرفت السبب وقالت إنك في وحدتك في البيت ومشاهدتك لهذا القط الذي في طريقه إلى الموت قد سببت لنفسك هذا الضعف، فأرسل إلى أمي أن تحضر من الصومال حالاً. فأرسلت في طلب زوجتي فجاءت عن طريق القاهرة ولكن القط كان قد فارق الحياة في

ليل ٢٥ ـ ٢٦ من شهر تموز ١٩٦٦. وكنت في صباح ٢٥ حملت القط إلى المجلى ليشرب من الحنفية رأساً كعادته، وفتحت له الشباك المطل على البستان عند المجلى وخرجت إلى عملي. وعدت في المساء حول الساعة السابعة فبحثت عنه في المطبخ فلم أجده وخرجت إلى البستان فوجدته ملقى على العشب ونفسه متتابع يلهث كمن كان قد عدا مسافة طويلة حتى انقطع نفسه، فحملته ووضعته في خزانة كانت هناك وفتحتها، ولم يقبل أن يأكل أو يشرب شيئاً. وفي الصباح وجدته قد خرج من الخزانة واستلقى تحت لوح من الكرتون ومات هناك. وطلبت من العمال أن يدفنوه فأخذوه ودفنوه، وبعد أيام عادت زوجتي وقصصت عليها الخبر.

هكذا انتهت حياة (بسين) بعد عمر مخلوط من الرفاهية زماناً ومن الشقاء زماناً آخر.

* * *

ولسائل أن يسألني: هل رثيتَ هذا القط بشيء؟ والجواب: لا، ولكنني تخليداً لذكره كتبت سيرته. وها أنا ذا أقدمها للقراء. ومن الشعراء من رثى هرته مثل التميمي الجرجاني والقاسم بن يوسف.

ولما كان (بسين) قطاً أسود حالك السواد وكان للقط الأسود شأن في الديانات والأساطير أضفت إلى سيرته بحثاً قصيراً في القط الأسود عامة.

أما رثاء الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني للهر فمنه قوله:

إن لي هرة خضبت شواها ... دون وِلدان منزلي بالرَّقون
ثم قلّدتها لخوفي عليها ... وَدَعاتٍ تَرُدُّ شرّ العيون
كلّ يوم أعولها قبل أهلي ... بزلالٍ صافٍ ولحم سمين
وهي تَلعابة إذا ما رأتني ... عابسَ الوجه وارم العِرنين
فتغني طوراً وترقص طوراً ... وتَلَهَّى بكل ما يُلهيني
لا أريد الصِّلاء إن ضاجعتني ... عند برد الشتاء في كانون

وإذا ما حككتها لحستني بلسان كالمِبرد المسنون
وإذا ما جفوتها استعطفتني بأنين من صوتها ورنين

* * *

وكذاكَ الأقدار تفترسٍ المرء وتغتاله بقطع الوتين
بينما كان في نشاط وأنس إذ سقاني ساقٍ بكأس المنون

ورثاء القاسم بن يوسف جاء فيه:

يقولون كانت لنا هرةٌ مربَّبة عندنا تالِده
لها قنص كاقتناص الفهود واثبة فيه أو لابده
ترى الفأر من خوفها خشَّعاً جواحِر وهي لهم راصده
فإن أطلعت رأسَها فارةٌ فليست إلى جحرها عائده
ولم تك إذ رقد الراقدات في ظلم الليل بالراقده
إذا ما دجا ليلها خلتها على الرصف نازلةً صاعده
وإن أصبحت فهي جوّالة كغائبةٍ يومَها شاهده
وكنا بصحبتها حامدين وكانت بصحبتنا حامده
فعنّ لها عارض للرّدى فأضحت بتربتها هامده

وإن كان هذا الرثاء في هرة فهو في هرٍّ أيضاً.

* * *

قصص في عالم القطاط[1]

القط والهرّ والسِنوّر أسماء للحيوان المعروف، ويقال للأنثى قطة أو هـرة وقلّ أن يقال لها سنّورة. وهو حيوان قديم منذ خلق العالم، وفي الأساطير القديمة أن امرأة اسمها (ليليث) وكانت عاتية على أمر زوجها وعاصية له ونشزت عنه وخرجت من الفردوس وعاشت وحيدة تظهر في الليل وتختفي في النهار، ثم انقلبت إلى عفريت يمص دم الأطفال خاصة على شكل قط ضخم أسود اسمه ألبروشا. وفي الأساطير أيضاً عن السفينة والطوفان أن الحيوانات القارضة كالفئران والجرذان كانت مخلوقة قبل خلق القط ولم يكن القطاط في الوجود عند حدوث الطوفان. وكان في السفينة زوجان من الفئران وزوجان من الجرذان، وسرعان ما امتلأت السفينة من هذه الآفات. ففزعت الحيوانات إلى الأسد وهو سيد الحيوانات وسألته العون في الخلاص من هذه المصيبة. فعطس الأسد فخرج من منخريه

(١) في الصفحات التالية من الكتاب بحث تاريخي وعلمي عن القطط وما يدور حولها من قصص السحر والشعوذة والخرافات وهي كلها مما خلفته عصور الوثنية والجهل في معتقدات وعقول بعض الناس من أوهام وأباطيل نهت عنها وحرّمتها الشريعة الإسلامية الغراء. وقد ذكرنا جانباً من الرأي الإسلامي في هذا للتنوير والإفادة، فاقتضى التنويه.

زوج من القطاط توالدا وتكاثرا وفي النتيجة تم القضاء على الجرذان والفئران، وفي الأساطير أيضاً أن الفأر كان يقرض خشب السفينة حتى يخرقها ويغرق من فيها وما فيها، ولكنهم أرسلوا عليه القط فقبض عليه وأرسلوا ضفدعة فدخلت في الخرق وسدته. وفي أسطورة إيطالية عن الراهب فرانسيس أن هذا الراهب كان يتعبد في حجرته فأراد الشيطان أن يصرفه عن عبادته فأرسل عليه مئات من الفئران تناوشه وتؤذيه وتقرض ثيابه وتعض أصابع قدميه، وكاد الراهب أن يقلع عن صلواته وعبادته. وفي تلك الآونة الحرجة قفز من كمه الواسع قط، فهجم على الفئران وأخذ يفتك فيها حتى لم يبق منها إلا فأران سارعا إلى الاختباء في صدع عميق في الحائط في داخل الحجرة. وفي هذه الأسطورة أيضاً أن أولاد ذلك القط أو القطة لا يزالون يرصدون الشقوق والصدوع أينما كانت يحسبون أنها تؤوي ذينك الفأرين.

وهكذا نشأت تلك العداوة الأبدية بين القط والفأر فهما منذ الخليقة على عداء دائم إلى الآن. وفي الأسطورة أيضاً عن البحارة اليابان أنهم إذا خرجوا بسفينتهم إلى البحر أخذوا إلى السفينة سلحفاة على شكل قط، وهذه تقيهم من غائلة الفئران التي تدأب دائماً على خرق السفن وإغراقها.

وفي الأساطير الخاصة بالقمر أن القمر يعتبر قطاً صياداً، وعند بعض قبائل الهنود الحمر أن القمر إذا أخذ بالتناقص كان السبب في ذلك أن الفئران تقرضه شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى، وأن الشمس تعيده إلى كماله لأنها هي القط. وعند بعض القبائل الافريقية أن القمر إذا خسف فذلك من فعل القط لأنه يبتلع القمر. وعندهم أيضاً أن القمر يضل طريقه فيخسف لأن الشمس التي هي القط ابتلعته، فهم في هذه الحالة يضجون ويصفقون ويقرعون الطبول حتى تفلته الشمس من فمها!!

وعند المصريين القدماء كان القط مقدساً ولا سيما عند الآلهة إيزيس،

ثم أصبح يُنظر إليه بأن الإلّه متجسد فيه، وصار يدعى (باستت)، وكان أبو (باستت) الإلّه أوزيريس إلّه الشمس وأمه (إيزيس) إلاهة القمر. وكان باستت في الأصل له رأس كرأس الأسد ثم ظهر برأسه الطبيعي أي رأس القط. وترقت به الحال حتى تقدم على غيره من الآلهة. وكان له معبد وصفه هيرودوتس الذي زاد مصر حول ٤٥٠ قبل الميلاد. و(باستت) قطة إلاهة بالنسبة إلى أمها وقط إلّه بالنسبة إلى أبيه (راع) وهو أوزيريس أيضاً. والقط والشمس صنوان. وتظهر (باستت) في تماثيلهم القديمة برأس قط ولها يدان ورجلان كيدي الإنسان ورجليه.

والقط كالحية له صفات تسترعي الانتباه فهو يشترك مع الحية في انسيابه دون أن يسمع الإنسان له جَرْساً وينسل في مروره انسلال الحية، وفيه قوة على سحر الفأر وتجميد حركاته، كالحية في سحرها لفريستها. ومن هنا كان للقط في أذهان الناس صورة فيها بعض الفزع كما في الصورة عن الحية. وهذه الصورة تزداد وضوحاً في القط الأسود لأنه لا يُرى في الليل وإنما يظهر منه عيناه البراقتان، وهذا البريق يضفي على القط الأسود صفة تقرب من صفة الأشباح. ونسبوا إلى القط لهذا السبب بأن له حاسة نظر ثانية. ومنظر البؤبؤ في عيني القط يبعث على العجب المشوب بالرهبة، ولعلّ هذه الرهبة ربطت بين القط والشيطان ولا سيما بين القط الأسود والشيطان. ولما كان النور يشع أو يبرق من عيني القط فإن الشمس والقمر هما كعيني القط مصدر للإشعاع والنور.

وكان الإغريق القدماء يعتقدون أن الشمس والقمر عند خلق العالم خلقا جميع الحيوانات وأن الشمس خلقت الأسد وأن القمر خلق القط وقالوا إن حياة القمر تشبه حياة القط بل إنه هو القط، وادّعى شعراء أساطيرهم أن جسم القط يزداد وينقص بحسب ازدياد القمر ونقصانه. ولكن الإغريق كانوا بصورة خاصة يربطون بين عين القط والقمر، من حيث أن العين تكون ضيقة بمثل ما يكون القمر هلالاً ثم تزداد اتساعاً

باتساع القمر في مضيه نحو الكمال في البدر، وقال بلو تارك إن ضيق بؤبؤ العين وانبساطه يسيران طبقاً لتناقص القمر وتزايده. وفي إحدى الأساطير أن آلهة الإغريق لما هربت إلى مصر من عسف الجبار تيفون Typhon تحولت الإلّهة أرتميس إلاهة القمر إلى قطة والتجأت إلى القمر!

وكانت (باستت) المصرية تكون أحياناً لها أطراف إنسان وذنب قط، ولها أذنان منتصبتان دائماً برأس محدد. ويقال عن القط (أو القطة) أن له تسع أرواح والعدد ٩ عند الإغريق له دلالة خاصة فهو ثلاث ثلاثات. وجهنم عند الإغريق يحيط بها نهر ستكس Styx ويلتف حولها في تسع دوائر. وعند المصريين القدماء أن الأفلاك تسعة وأن مجمع الآلهة يتألف من ثلاث فرق وكل فرقة فيها تسعة آلهة. وعند الإغريق أن الإلّه أبولو وهو أخ الألاهة أرتميس Artemis خلق السنة القمرية على تسعة أشهر، وهذا قريب من اعتقاد المسيحيين بأن موت المسيح كان في الساعة التاسعة. والقط له تسع أرواحٍ لأنه على زعمهم شديد الحذر خفيف الحركة سريعها وإذا سقط من محلٍ عالٍ سقط على رجليه وقدميه. ومع ذلك فالقدماء كانوا لا يتعرضون للقط بأذى لأن القط منتقم لا ينسى ثأره. وكان المصريون القدماء يحكمون على قاتل القط أو القطة بالإعدام. وذكر هيرودوتس عن المصريين أنهم قتلوا جندياً رومانياً لأنه قتل قطة ولعل ذلك لأنها مقدسة عندهم. وكان المصريون إذا مات قط (أو قطة) في أحد البيوت فإن أهل البيت يحلقون حواجبهم حداداً. وكان رب البيت يضع القط الميت في كفن من الكتان ثم يحمله وأهل البيت يندبون وينوحون حوله إلى بيت خاص حيث يحنط بالحنوط ثم يدفن في قبو ويدفن معه طعامه وشرابه. وكانت جنازة القط تكون صاخبة بصياح الباكين وولولاتهم وصوت قرع الصنوج. وكانت القطط المحنطة في مصر القديمة ترسل إلى معبد يقال له بوباستِس حيث تدفن هناك في جبانة خاصة.

* * *

وكان الاعتقاد في قديم الزمان أن أرواح الموتى مودعة في القطاط وهو ما يقال له المسخ عند أقوام عديدة. وعند الغانيين في الجنوب الغربي من افريقية اعتقاد بأن الإنسان إذا مات تخرج روحه من جسده وتحلّ في قط أو قطة. وكان اليابانيون إذا رأوا علامة سوداء على ظهر قط (أو قطة) اعتبروا تلك العلامة علامة مقدسة، والقطط التي على ظهورها تلك العلامة كانت ترسل إلى المعابد لأن فيها أرواح الأجداد.

وعينا القط كما قلنا لهما منزلة خاصة عند القدماء. والمصريون القدماء يسمون القط باسم (ماو)، و(ماو) معناها الرؤية. وفي الأساطير المصرية القديمة أن إلآههم المزعوم كانت له في الأصل عين واحدة. وإذا بكى فالدموع من تلك العين هي التي خُلق منها البشر، وكانت العين تنزع من مكانها ثم تعاد إليه، واتفق أن ولدين لهذا الإلّه فقدا فأرسل الإلّه خلفهم إلى الدار السفلى عينه للبحث عنهما. ووجدت العين الولدين وعادت إلى صاحبها ولكنها وجدت أن عيناً أخرى قد حلت محلها، فغضبت أشد الغضب فأحبّ الإلّه أن يطيب خاطرها فقلبها حية من أعظم الحيات شراً ثم جعلها تلتف حول جبينه. وهاتان العينان ـ العين الجديدة والعين التي صارت حية ـ هما أصل الإلّهين (سخمت) و(باستت) أي الأسد والقطة. وعند المصريين القدماء أن الذي له عينين قِطِّيَّيْن يستطيع الرؤية في الظلام، وأن القط له حاسة ثانية للنظر لأنه يرى في النهار المنير والليل المظلم، وهذا ما دعا الناس إلى أن يحاولوا اكتساب هذه الحاسة النظرية الثانية من القطاط. فكانوا مثلاً يأتون بعين من قط أسود ويجففونها ثم يسحقونها حتى تصير ذروراً ثم يخلطون الذرور بالمِرة الصفراء من إنسان وتكحل العين أو العينين بهذا الكحل حتى يكون لهما تلك الحاسة الثانية من النظر. وكانت هذه الحاسة الثانية في رأيهم تساعد على رؤية الجن والعفاريت. وفي التلمود وصفة لاكتساب هذه الحاسة البصرية الثانية جاء فيها: خذ مشيمة ولد من أولاد قطة سوداء يكون بكرها واحرقها بالنار

ثم اسحقها حتى تصير ذرورا ثم اكتحل بهذا الذرور. وفي الحكايات الشعبية الفرنسية أن القط الأسود دليل للإنسان يدله على الثراء وعلى الغنى، وأن المرء إذا جاء بقط أسود وربطه بحبل ثم أرسله والحبل في رقبته إلى مكان يظن أن فيه كنزاً وفيه خمس طرق متشعبة فإن القط الأسود يسير في الطريق المؤدية إلى الكنز!.

* * *

والقط مشهور بقدرته على قتل الحيات، وهذا من الأسباب التي جعلت للقط صفة سحرية وفضيلة طبية. فاليابانيون مثلاً كانوا لمداواة أحدهم إذا أصيب بتشنجات في بطنه يأتون بقط أسود ويضعونه على بطن المصاب فيشفى. وكان لشعر القط عموماً والقط الأسود خصوصاً مزية طبية، وكان يظن أن القط يشفي من العمى.

* * *

والعداء بين القط والفأر أمر معروف، ويقال إن المصريين القدماء دجنوا القط قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد من أجل إنقاذ زروعهم من عوادي الجرذان والفئران وأشباهها. ومن حكايات (ايسوب) أن شاباً وقع في حب قطة ودعا الإلّهة الزهرة أن تقلب القطة إلى امرأة حسناء فأجابت الزهرة دعوة الشاب، وتزوج الشاب من هذه المرأة القطية، ثم دخل عليها في ليلة العرس، وبينما كانا في الفراش معاً حانت من المرأة التفاتة فرأت فأرة في المكان فهبت من الفراش تطاردها طول الليل والشاب ينتظر. فبلغ ذلك الزهرة فاستاءت من فعل المرأة فأعادتها قطة كما كانت!.

* * *

وللقط أيضاً في أساطير القدماء مزية إنزال المطر في زمن الجدب؛ فأهل جاوة في القديم كانوا يغطون القط في الماء ثم يتركونه وسرعان ما تتلبد السماء بالغيوم وتنزل المطر كما كانوا يظنون. وكانوا يستعملون القط الأسود في سومطرة لهذا الغرض.

ولما كان القط من أنظف الحيوانات وأطهرها فقد اتخذت طهارته رمزاً للحبل بلا دنس عند المسيحيين حينما جعل الرحم من (حنة) أم مريم العذراء طاهراً طهارة القط، وصاروا ينظرون بشيء من القداسة إلى القطة لأنهم قالوا إن مريم العذراء ولدت المسيح في بيت لحم في وقت كانت قطة هناك قد ولدت ولداً لها. وفي الرسوم التي رسمها (ليوناردو دا فنشي) لمريم العذراء كانت الهريرة تكون مع العذراء والطفل في رسمة واحدة.

واستعمل القط في الطلاسم والحُجب والعوذات، وكان الصينيون في القديم يعتقدون أن القط يرى الأرواح الشريرة ويطردها، وكانوا يضعون التماثيل الصغيرة للقطاط في أماكن مخصوصة للوقاية من الشياطين. حتى إن المصريين كانوا يرون في اسم القط تأثيراً سحرياً. وكان القط الأسود مما يُتيمن به، ويُظن أنه جالب لحسن الحظ، وكان همّ الناس اقتناء القطاط السود لكي تجلب لهم حسن الحظ، وكانوا يحتالون عليها حتى يصطادوها، وهذه وصفة قديمة لاصطياد القطط:

إذا كان القمر هلالاً فخذ عشبة القط وجففها في حرارة الشمس ثم خذ عشبة الفرفحين في الساعة الثامنة لا غير وعرّضها للهواء والقمر وعلق العشبتين معاً في شبكة في موضع مناسب فمتى شمتها إحدى القطاط صاحت فسمعتها القطاط فتواردت وتواثبت على الشبكة تريد أن تصل إليها.

من قصص القطاط السود..

والقط الأسود من بين القطاط له اعتبار خاص ويعزى إليه الخبث وغموض السر. وفي إنجيل قبطي لا يعترف به واسمه Pistis Sophia أن المسيح يقول لمريم العذراء كيف أن الظلمة الخارجية المحيطة بالكون ثعبان كبير ذيله في فمه يطيف بالكون جميعه وأن في هذا الثعبان منازل اثني عشر وفي كل منزل حاكم يحكمه وفي المنزل الثاني حاكم وجهه وجه قط، وفي المنزل الحادي عشر حكام سبعة لهم وجوه القطاط.

وفي هذا الارتباط بين القط والثعبان صلة تمتد إلى الآلهة. فعند المصريين الفراعنة أن القط السماوي لإله الشمس حارب الظلام القادم وأن الثعبان ابتلع الظلام، ولكن القط كان يعتبر بأنه يبتلع الشمس، وعد القط في الأساطير من أنه مبتلع كالثعبان بين الآلهة.. وفي الأساطير اليونانية أن الإلهة هيكاتي Hecate هي في هيئة قط أسود. وكانت تعتبر بأنها رائد الموت، حتى إن الناس إذا كان لهم مريض وظهر لهم قط أسود تشاءموا به لأنه ينذرهم بأن موت مريضهم قريب. وكان الألمان قديماً يعتقدون أن المريض إذا قفز على فراشه قط أسود فهو ميت بعد قليل لا محالة، وقالوا إن القط كان الحيوان الوحيد الذي لم يدع لحضور جنازة

بوذا لأنه قتل الجرذ الذي كان قد أرسل لإحضار الدواء لبوذا حتى يشفى. وقالوا إن القط والأفعى هما الوحيدان من الحيوانات اللذان لم يبكيا على بوذا عند موته.

* * *

والقط الأسود أو القط عموماً له صلة بالنساء الساحرات. وفي أسطورة قديمة أنه كان يوجد قبل الخليقة إلّهة للظلام اسمها (ديانا)، وكان الكون في شخص هذه الإلّهة شيئاً واحداً غير مميز بعضه عن بعض. ثم شطرت هذه الإلّهة نفسها شطرين: شطراً مذكراً والآخر مؤنثاً؛ ثم شطرين آخرين هما النور والظلمة، والنور كان أخاها واسمه لوسفر Lucifer وهو إلّه النور، فعشقته إلّهة الظلمة، ولكنه لم يرد أن ينطفىء نوره في الظلام إذا تزوجها. وألحت عليه (ديانا) بأن يتزوجها فرفض، ثم علمت أنه كان يعشق قطة جنية حسناء كانت دائماً تنام بجانبه. فأقنعت (ديانا) القطة الجنية بأن تتنحى عن مكانها حتى تحل فيه إلّهة الظلام، وكان من زواج النور بالظلمة ابنة سميت (أراديا)، وهذه الابنة هي أول ساحرة من النساء في الوجود وأرسلتها (ديانا) إلى الأرض لتعليم الناس صناعة السحر. وهكذا كما قيل كان مبدأ الصلة بين القط أو القطة والنساء الساحرات، حتى أصبح القط هو الفرس أو الجواد تركبه الساحرات في أعمالهن، ولما كانت العواصف والطوفان والصواعق من أعمال الساحرات، فإن الناس في إيرلندة كانوا إذا حدثت عاصفة يعمدون إلى القطاط فيحبسونها تحت القدور إلى أن يجبروها على استعمال نفوذها في تهدئة العاصفة. وكانوا يقولون إنه يمكن معرفة المد والجزر في البحر من عيني القط لأن الشق فيهما يكون عمودياً عند المد وأفقياً عند الجزر.

وفي حكاية اسكتلندية أن ملكاً من ملوك إسبانيا أرسل سفينة حربية إلى جزيرة هناك يريد الانتقام لمقتل ابنته التي قتلتها ساحرة اسكتلندية. فعلمت الساحرات هناك بذلك فاتخذن لأنفسهن شكل القطاط وتجمعن ثم

ركبن على قلوع السفينة الإسبانية يردن إغراقها. ففزع ربان السفينة وكان يعرف شيئاً من السحر فاستعمله وأبطل مفعول سحر الساحرات. فناشدن هؤلاء ملكتهن فجاءت هذه لنجدتهن على شكل قطة سوداء جبارة فصعدت إلى أعلى السارية وأخذت تغني بأغنية سحرية فبطل سحر الربان ثم غاصت السفينة إلى قعر البحر.

وفي حكاية أخرى عن جزيرة سكاي Skyc أن امرأة متزوجة كانت تغيب عن بيتها كل ليلة، مما سبب إزعاجاً وقلقاً لزوجها. ثم قرر الزوج أن يتبعها متى خرجت، فتبعها ليلة من الليالي وإذا بها تتحول إلى قطة سوداء ثم تذهب إلى البحر بأمر الشيطان وتنزل فيه في منخل مع سبع قطاط سود أخر. فأخذه الذعر وعاد من حيث أتى.

وكانت محاكمات الساحرات تتكشف عن أمور غريبة عن القطاط. ففي محاكمة ساحرة مشهورة اسمها أغنس سامبسن Agnes Sampson وكانت متهمة بأنها حاولت إغراق السفينة التي كان فيها الملك جيمس والملكة آن وهما عائدان من الدانمارك، أنكرت هذه الساحرة إنكاراً باتاً أن يكون لها ضلع في هذه المؤامرة. ثم عذبت هذه الساحرة حتى أقرت وجاء في إقرارها أنها واحدة من مئتي ساحرة ذهبن إلى البحر على مناخل ومعهن قناني الخمر فشربن وطربن ومرحن. ثم أتين بقطة سوداء ووضعنها في البحر بالقرب من مدينة (ليث) وسرعان ما هاج البحر هياجاً عظيماً وهبت عاصفة شديدة قلبت سفينة كانت قادمة إلى تلك المدينة تحمل الجواهر والأموال المهداة إلى ملكة اسكتلندة الجديدة آن. وأقرت أيضاً بأن هياج البحر وهياج العواصف بسبب القطة السوداء لم يستطيعا قلب سفينة الملك والملكة لأن إيمانهما كان أقوى من إيمان الساحرات.

وفي القوانين الكنسية الإنكليزية منذ أواخر القرن السابع أحكام ضد الساحرات اللواتي يستعنّ بالشيطان لإحداث العواصف في البحر. وفرض

شارلمان حكم الإعدام على كل من يستعين بالشيطان لإثارة العواصف وإهاجة الاضطرابات في الجو. وفي سنة ١٤٨٤ أصدر البابا (انوسنت) الثامن قراراً بإدانة السحرة والساحرات بهذه الأعمال.

ورووا عن حادث جرى لساحرة ألمانية، فإن هذه الساحرة كان قد حكم عليها بالحرق على الخشبة، كما كانت العادة، فرفضت الساحرة وأخذت تشتم القاضي وتصيح في وجهه وتفوه في وجه الكاهن بأقوال كفرية. ولكنهم تغلبوا عليها وشدوها إلى خشبة فيها النار فعلت النار ولفّتها بالدخان وكان بجانبها كاهن يصلي، وإذا بها تخرج من النار وتصرخ على شكل قطة سوداء ما لبثت أن غاصت بين جمهور الناس واختفت.

وفي القصص الأوروبية شيء كثير من ذلك. ففي حكاية عن رجل من مدينة ستراسبورغ أنه كان في ليلة من الليل يسير في أحد شوارع المدينة وإذا به يهاجم من ثلاث قطاط ضخمة فدافع عن نفسه دفاعاً شديداً وأوقع إصابات في القطاط. وبعد مدة ألقي القبض عليه بتهمة الاعتداء على ثلاث سيدات معروفات. وأنكر الرجل التهمة إنكاراً قاطعاً، ولكن السيدات لما فحصن طبياً تبين أن الإصابات التي أصبن بها كانت هي التي أوقعها الرجل في القطاط.

وجرى مع أحد السادة الأسكتلنديين شيء من قبيل ذلك، فإن هذا السيد كان له مخزون من الخمر ولاحظ أن هذا المخزون يتناقص شيئاً فشيئاً وقال إن هذا التناقص من فعل الساحرات. فأخذ سيفه ليلة من الليالي ونزل إلى القبو الذي فيه الخمر وسرعان ما التف حوله عدد من القطاط السود فأخذ يخبط بسيفه حتى فرقهن وخلا القبو منهن وأصاب في هذه المعمعة إحداهن وفي الصباح علم أن عجوزاً في القرية كان معروفاً أنها ساحرة وجدت في فراشها ورجل من رجليها مبتورة.

وكتب كاتب فرنسي عن ساحرات مدينة فيرنون Vernon يقول إن

الساحرات في تلك المدينة كن يجتمعن في الليل في قصر قديم هناك وهن في أشكال القطاط السود. واتفق أربعة رجال من الأشداء على تمضية ليلة من الليالي في ذلك القصر، فلما استقروا في القصر طلع عليهم مئات من القطاط السود قتلت واحداً منهم وجرحت الثلاثة الآخرين جروحاً بالغة، ولكن الرجال أصابوا عدداً من القطاط بإصابات مختلفة. وفي اليوم التالي كان في الفراش عدد من نساء المدينة بهن جروح دامية وتشويهات.

وكان سكان مقاطعة الباسك في شمال إسبانيا يعتقدون حتى نهاية القرن التاسع عشر أن الساحرات كانت لا تزال تظهر على شكل قطاط سود. وحدث أن عاملاً هناك رأى قطة سوداء في منتصف الليل كانت تسحر أبقاره فضربها وقطع أذنها. وفي الصباح وجد على الأرض أذن امرأة كان لا يزال القرط فيها.

وشهدت امرأة عجوز في المحكمة في سنة ١٦٩٢ وكانت متهمة بالسحر أمام رجل قاض فيها وأنكرت التهمة وصرخت في وجهه. وفي الليل كان الرجل نائماً في فراشه فهجمت عليه قطة سوداء ضخمة دخلت من الشباك وجثمت على صدره وأخذت بخناقه، وتخلص منها بشق النفس.

* * *

والقط الأسود (أو القطة السوداء) كان يكون أليف الساحرة يساعدها في سحرها، وبين الاثنين علاقة، فالسحر يكون في الظلام في الخفاء والقط الأسود بسبب سواده يخفى عن النظر في الليل، وكانت الساحرات يصاحبن القطاط السود على أنها جنيات أو أرواح. وكان لكل ساحرة جنية من هذه الجنيات. وفي سنة ١٥٧٩ حوكمت ساحرة في وندسور Windsor في إنكلترة وأقرت أنها كان لها جنية في شكل قطة سوداء كانت تساعدها في سحرها وكان طعامها الحليب الممزوج بدم الساحرة. وفي محاكمة

أخرى جرت بعد ذلك في مقاطعة اسكس في إنكلترة أقرت الساحرة المتهمة بأن كان لها قطة سوداء جنية كانت تمتص من دمها.

وتقول الأسطورة أن الشيطان كان يحب القطاط السود. وكانت الساحرات تستعين به وبهذه القطاط في أعمالهن، ووهب الشيطان لهن القدرة على الانتقام. وكان في مقدورهن تخريب الريف بزروعه وأشجاره والإضرار بالأنعام والأبقار، وإيقاع البلاء والموت بالناس بمجرد النفخ عليهم أو النطق بعبارات أو كلمات سحرية. ولهن العين المصيبة يستطعن بها بنظرة واحدة تحويل الناس من بشر إلى حيوانات أو أحجار. وقد يثرن الخصومات بين الأصدقاء، وكان لهن مشاريب تعمل من دمهن ممزوجاً بمواد مختلفة مسحوقة كقلب حمامة وكلية أرنب ورحم خطاف. وكن يحدثن الأوبئة بين الناس والعُنة للرجال والعقم للنساء ويجففن لبن المرضعات. ولهن تماثيل من الشمع يوقعن بهن العذاب والموت في أعدائهن. وكان القط الأسود (أو القطة السوداء) بحكم كونه أليفاً للساحرة يشترك معها في إحداث هذه المصائب الفادحة.

وفي سنة ١٦١٨ جرت محاكمة لساحرة في لنكولن Lincoln في إنكلترة وشنقت لأنها كانت تستعمل قطة سوداء أليفة لها في حرمان نبيل وزوجته من أولادهما، وقالت هذه العجوز الساحرة في إقرارها أنها حصلت على فرد قفاز كان لابن هذا النبيل ووريثه وكانت تغرقه بالماء الساخط وتشك الدبابيس فيه ثم تمسح به على جسم قط أسود لها وتأمره بالذهاب سريعاً لإجراء ما تأمره به. وكان الابن كل مرة يصاب بمرض مجهول يصاحبه آلام مبرحة إلى أن مات. ثم انصرفت إلى الابن الثاني وعملت فيه ما كانت تعمله في الابن الأول حتى مات في حضن أمه. ثم أخذت ريشاً من فراش زوجة النبيل وحكتها على بطن القط الأسود حتى أمنت من أن الزوجة لن يأتيها ولد من بعد.

وكان سكان من المجر يعتقدون أن معظم القطاط السود تنقلب إلى

ساحرات بين سن السابعة والحادية عشرة. وكان الشيطان في شكل قط أسود يترأس اجتماعات الساحرات بعد منتصف الليل. وكانت الساحرات تتعاقد مع الشيطان في هذه الاجتماعات التي كان يجري فيها أعمال الفجور والفسوق، ويقال إن الشيطان في حالة الذكورة يكون كابوساً للرجال وفي حالة الأنوثة يكون كابوساً للنساء.

ويقال إنه كان في عهد الملك شارل التاسع في باريس وحدها قريب من ٣٠ ألف ساحر وساحرة وقريب من مئة ألف في مختلف أنحاء البلاد. وكانت هذه الاجتماعات تعقد في الليل وظلت تعقد من القرن الخامس عشر إلى الثامن عشر. وكان القط الأسود معبوداً لبعض الناس قبل ذلك بقرون على اعتبار أن الشيطان حالّ فيه. وكان المارق من الدين يأخذ شكل القط الأسود استتاراً. ويقال إن الجمعيات السرية على مختلف أنواعها في القرون الوسطى كانت مسرحاً لأعمال يقوم بها القط الأسود.

* * *

وثمة جمعية أخرى سرية وهي جمعية الشيطان وأعضاؤها كانوا يعبدون القط الأسود في اجتماعاتهم السرية وكانوا في هذه الاجتماعات يضحون بالأطفال والأولاد الصغار ويأخذون دماءهم ويعجنونها مع الطحين لخبز خبزهم.

وكان يظن بالقط الأسود بأنه شديد الشهوة، فضلاً عن مرونة جسمه وبريق عينيه وخصوصاً في الظلام. وهو كما قلنا شيطان. ومن الحكايات المشهورة حكاية عن الملك آرثر ملك بريطانيا وصراعه مع قط أسود. وفي الحكاية أن رجلاً كان يصطاد السمك من بحيرة جنيف في سويسرة فاصطاد هرة صغيرة سوداء فأخذها وأطعمها ورباها، وسرعان ما نمت وكبرت بسرعة عجيبة وقويت واشتدت ثم عدت على الصياد فقتلته وقتلت امرأته وأولاده، وهربت بعد ذلك إلى الجبال، وصارت نقمة على سكان الريف هناك.

وعلم الملك آرثر بخبر هذه القطة السوداء فجهز فرسانه تحت قيادة ساحرة (ميرلين) وخرج لقتالها، وصعد الجنود الجبل ورأوا الكهف التي تأوي إليه القطة العفريته فصفر لها ميرلين فخرجت في الحال إلى فم الكهف ورأت الملك آرثر فقفزت عليه، وتلقاها الملك بحربته ولكن القطة كسرت الحربة في فمها، ثم وثبت على حلقه ولكنه اتقاها بالترس وضربها بالسيف على رأسها فشجها فأمسكته من كتفيه ثم انشبت أظفارها في جسمه وأدمته. فهاجت هائجة الملك وضربها بالسيف فقطع يديها، ولكنها هاجمته برجليها وقبضت بهما على حلقه وصدره حتى سال الدم منهما، وتمكن الملك أخيراً من الإفلات منها وقطع رجليها فسقطت ثم أجهز عليها بسيفه.

وفي أوروبا حكايات كثيرة عن القطاط العفاريت، وكانت هذه تخرج للمسافرين في الليل. والفلاحون الصقالبة كانوا يتجنبون لقاء القطاط السود في الليل لأنهم كانوا يعتقدون بأنها عفاريت.

* * *

واشتهر عن القط الأسود أنه كان مصاصاً للدم، ومصاص الدم في الأصل هو الميت يحيا ويقوم من القبر ويتسلل إلى بيوت الناس في الليل فيمص دماءهم وهم نيام. وفي حكاية عن رجل ألماني مات وهو في الستين من عمره من ركلة ركله بها حصانه. وفيما كان الرجل يموت هجمت قطة سوداء ووثبت على السرير وخدشت وجهه بأظفارها. ثم دفن الرجل، وبعد الدفن كان الناس يرون طيفاً يكلمهم بصوت الرجل الألماني، وجرت شائعات عن أن الحليب في الأباريق والزبادي كان يختفي أو كان ينقلب إلى دم وأن ثياب المذبح في الكنيسة كانت ترى ملطخة بالدم، وأن رجالاً مسنين كانوا يموتون خنقاً، وأطفالاً يسرقون من مهودهم، ودجاجاً يذبح أو يسرق ويؤكل.

وبعد ستة أشهر من هذه الحوادث قرر الناس أن ينبشوا قبر الرجل

ويخرجوا جثته، فأخرجوها ووجدوها لا تزال على حالها لم تتجيف وكانت مفاصله لا تزال مرنة، ورأوا أنهم كانوا إذا وضعوا قضيباً بين أصابع يده كانت أصابعه تنطبق على القضيب كما لو كان حياً. وكان يفتح عينيه ويغمضهما، ولمّا بزلوا عرقاً في رجله خرج الدم مندفعاً منه. وحينئذ رأت السلطات أن تقطع الجثة إرباً إرباً ثم تحرقها، ولكن الذي تولى تقطيعها وجد صعوبة شاقة في ذلك، ولكن لما قطعت الجثة في آخر الأمر وأحرقت انقطع ظهور الطيف.

وعند البوذيين أسطورة عن أن النساء شبيهات بالقطاط في أنهن حريصات على تخريب بيوت من يقربهن، والقطاط بحكم كونها شيطانية في عرف الكثيرين كانت تكون عرضة للقتل، وكانت يضحى بها لاسترضاء الشيطان، وهكذا خلت مقاطعة من الولايات المتحدة من القطاط السود لأنها كانت تقدم قرابين للشيطان. وكانوا يضحون بالقطاط السود على أشكال منها أنهم كانوا يشكّون القط الأسود في سفود ويشوونه في النار فإذا تم شواؤه شكوا قطاً أسود آخر وهكذا، وذلك كله لإرضاء الشيطان.

وكان يجري في اسكتلندة حتى القرن الثامن عشر احتفال كان للقط الأسود المقام الأول فيه، وكانت تذبح القطاط السود فيه بأعداد كبيرة وذلك من أجل الاتصال بالشيطان والمساومة معه على الحاسة الثانية للبصر. وكانت القطاط السود في هذا الاجتماع تهدى إلى الشيطان، وكانت تعذب عذاباً شديداً. وفي الوصف التالي شرح لذلك، وهو منقول عن بيان قاله رجلان اسكتلنديان من أسرة (ماكلين):

في القسم الأول من الاحتفال تظهر الأرواح في هيئة قطاط سود ثم يبدأ بتعذيبها على السفافيد في النار، رغماً عن تهديدات قط أسود ضخم كان يعوي عواءً مفزعاً. ودام تعذيب القطاط السود على هذه الصورة أربعة أيام، وفي اليوم الرابع عند النهاية ظهر قط أسود وأطلق من حلقه عويلاً شديداً، ولكن التعذيب ظل مستمراً إلى أن رضي الشيطان بإعطاء الحاسة

الثانية للبصر، وقيل إنه لو دام التعذيب أطول من ذلـك لعزل الشيـطان من منصبه. وكانوا أيضاً في هذه الاجتماعات يعذبون القطاط السود بإلقائها في الماء الغالي، فإذا ألقي قط أسود في الماء أخذت الشياطين تظهر وتسترحم من القـائم بالعمليـة أن يكف عن تعذيب القط، ولكنـه رفض ذلك إلى أن جاء كبير الشياطين فقبل القـائم بالعمليـة بالكف عن التعـذيب ورضي كبير الشياطين بأن يعطيه ما يطلبه.

وكـان المسيحيون إذا رأوا قـطاً يمشي على قبـر من القبـور يقـولـون إن صاحب القبر من زبانية الشيطان. وفي القرن الخامس عشر حين كـانت الساحرات شغـل الناس الشـاغل كـان القط الأسود رمـزاً للشر. وفي ذلـك القرن أجاز البابا انوسنت الثامن تعذيب الساحرات واضطهادهن فقد عـذب من النســاء الآلاف وأحــرقن على الخشبــة لا لشيء إلا لأنهن كن يقتنين القطاط. وكانـوا يعتبرون تعـذيب الساحـرات والقطاط بـأنه وسيلة لإخـراج الأرواح الشريرة وطـردها، وكـان تعذيب القـطاط يعتبر بـأنه بـاسم الدين. وكانوا في فرنسا يضعون القطاط في سلال ثم يحرقـونها كـل سنة في عيـد القديس يوحنا بحضور رئيس بلدية الناحية، وهذا ظل معمولاً به حتى نهاية القرن السابع عشر، بل ظل معمولاً به بعد مئة سنـة في متس Metz إحدى المـدن الفرنسيـة، وذلك في مهـرجان كـان يقام كـل سنة ويحضـره شيوخ المدينة في مـوكب حافـل وقور؛ حتى إذا التـأم الجمع عـرض على الناس عدد من القطاط محبوسة في أقفاص أو قفص كبير، ثم أشعلت نار عظيمـة وعلق القفص فوقها، وكانت القطاط في هذه الحالة تصرخ صـراخاً جنونياً والناس ملتذون بهذا المنظر لأنهم كـانوا يعتقـدون أنهم لا يحرقـون قطاطـاً ولكن ساحرات خبيثات يتلبسن بهيئة القطاط مكراً وخداعاً.

وهكـذا كان نصيب القـطة السوداء لا لـذنب جنتـه هي ولكن لـظلم الإنسان. ولو أردنا الإمعان في هذا الموضوع الذي لـه علاقـة بعلم النفس لطال بنا الأمـر. ويعزينـا أن هذه الاعتقـادات بشأن القـطاط عامـة والقطاط

السود خاصة هي من الماضي، والحاضر خلاف الماضي، والقطاط الآن في أوروبا خاصة تتمتع بعيشة هنية خالية من كل المنغصات والفضل في ذلك عائد إلى الحركات التحررية الإنسانية فقط ولا دخل للدين في ذلك.

وكنت أود أن أخصص جزءاً من هذا الكتاب للكلام على القطاط وإظهارها في صورة حسنة مع ذكر حوادث تاريخية جرت بين القطاط ورجال عظام مع حكايات طريفة أخرى، ولكني لضيق الوقت عدلت عن ذلك، وقد أقوم بذلك في طبعة تالية.

* * *

الرفق بالحيوان في الإسلام

والقطاط في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً لا شأن لها في أمور دينية ولا دنيوية، وهي منظور إليها على أنها حيوان ضعيف تستحق الشفقة والحماية. وكان الكلب أكثر أهمية للعربي قديماً لأنه كان حارساً أميناً وكان رفيقاً أميناً، ولم تكتسب القطاط أهمية في البداوة وإنما أهميتها كانت في الحضر.

كان النبي ﷺ واسع الرحمة، وقد شملت رحمته الإنسان والحيوان والطير. وكان ينهي عن تعذيب الحيوانات أو التمثيل بها، كما تفعل بعض الشعوب المتحدثة إلى الآن في حفلات مصارعة الثيران.

وروى البخاري: «لعن النبي ﷺ من مثَّل بالحيوانات».

وعن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلقت لحاجتي فرأيت حمرة معها فرخان فأخذت فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرّش، فرآها الرسول ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟» ردّوا ولدها إليها. ورأى عليه الصلاة والسلام قرية نمل قد حرقناها فقال: «من حرّق هذه؟» قلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلاّ ربُّ النار. (رواه أبو داود).

وحدّث رسول الله ﷺ فقال: «بينا رجل يمشي فاشتدّ عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّه ثم أمسكه بفيه ورقي فسقى الكلب. فشكر الله له، وغفر له. قالوا: يا رسول الله وإنّ لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبدٍ رطبة أجر».

القطاط في العالم الإسلامي

أما في الدين الإسلامي فالقط له حرمة ولا يجوز إيذاؤه، أما قتل القطاط فهو في الإسلام حرام، لأن القط له روح، ولا يجوز تعذيبه بالنار لأن الذي يعذب بالنار هو الله وحده، ثم إن القط ذو كبد حرّي، وفي كل كبدٍ حرّي أجر، أي أن الشفقة عليه حسنة.

وروي عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «عُذِّبت امرأة في هرّة سجنتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم ترسلها تأكل من خشاش الأرض». وروي الحديث بشكل آخر عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «دخلت امرأة ممن كان قبلكم النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تصيب من خشاش الأرض حتى ماتت، فأدخلت النار، كلما أقبلت نهشتها (الهرة) وكلما أدبرت نهشتها. ومعنى ذلك دعوة للرفق بالهرة خاصة وبالحيوان المفيد عامة.

وذُكر عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا مرّت به الهرة أصغى لها الإناء فتشرب، فالهرة في الإسلام حيوان طاهر.

* * *

وليس في الكتب العربية عامة وكتب الحيوان خاصة ككتاب الحيوان للجاحظ وحياة الحيوان الكبرى للدميري ما يعد بحثاً تاريخياً عن القط، وهم يذكرونه باسم السنور والهر أيضاً، وذكرهم له لا يتعرض إلى ناحية معينة. وسآتي فيما يلي على ذكر أمور تتعلق بالقط جمعتها من هنا وهنا.

رأيت في كتاب الحيوان للجاحظ قوله: زعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل. لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفئران وشكوا إلى نوح ذلك سأل نوح ربّه الفرج فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير. ذكر وأنثى، خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من المنخر الأيسر، فكفياهم مؤونة الجرذان. ولما تأذوا بريح نجوهما شكوا ذلك إلى نوح فشكا نوح ذلك إلى ربه فأمره أن يأمر الفيل فيسلح، فسلح الفيل زوج خنازير فكفياهم نجو السنانير برائحته (وذلك لأن الخنزير يأكل النجو على زعمهم).

ويقول الجاحظ في مكان آخر: زعم زرادشت أن الفأر من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان. وزعم زرادشت أن السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة. وما يقول زرادشت فيمن يقول إن الجرذ لو بال في البحر لقتل مئة ألف سمكة؟

ويقول أيضاً إن السنور يدلل ولا سيما من النساء ويخضب بالحناء وتصاغ له الشنوف توضع في أعلى الأذن والقروط في أسفلها. وللسنور تجار وباعة ودلالون وللسنور إهاب فضفاض وقميص من جلده واسع يموج فيه بدنه، ولو شاء إنسان أن يثنيه كما يثني قضيب الخيزران لفعل. وتزعم العامة أن من أكل السنور الأسود لم يعمل فيه السحر.

وفي حياة الحيوان للدميري ذكر لحديث المرأة التي عذبت في هرة حبستها، والحديث من رواية أبي هريرة. وذكر الدميري أن أحد أصحاب أبي بكر المتصوف الشبلي رآه أحد أصحابه في المنام بعد موته فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: دخلت الجنة بصالح أعمالي وبهرة صغيرة كنت قد وجدتها في دروب بغداد تمشي وقد أضعفها البرد وهي تتزوى من جدار إلى جدار من شدة البرد فأخذتها رحمة بها فأدخلتها في فرو كان عليّ وقاية لها من ألم البرد.

وذكر الدميري حكاية غريبة عن هر كان يطعم هراً أعمى.

وذكر أيضاً عن الهر الأهلي أن من أكل لحمه أمن من السحر، وطحاله إذا شد على المستحيضة انقطع حيضها، ومن استصحب ناب السنور لم يفزع في الليل، وقلبه إذا شدّ في قطعة من الجلد واستصحبه إنسان لم تظفر به الأعداء ومرارته من اكتحل بها يرى في الليل كما يرى في النهار. وعن القزويني أن مرارة السنور الأسود ومرارة الدجاجة السوداء إذا جففتا وسحقتا معاً واكتحل بها إنسان ظهر له الجن وخدموه، ومرارة السنور الأسود إذا أخذ منها نصف درهم دُق في دهن زنبق وسُعط به صاحب اللقوة أبرأه منها..

وفي هذه المزاعم عن القط الأسود إشارة إلى ما كان الناس في أوروبا يعتقدون فيه من أن السنور الأسود له صلة بالشيطان.

* * *

عودة إلى حديث القطاط السود

وفيما يلي تفصيلات أخرى عن القط جمعتها من مصادر مختلفة.

يقال عند عامة الناس أن الذي يركل برجله قطاً أو قطة يصاب بداء وجع المفاصل وأن الذي يغرق قطاً أو قطة في الماء يستعدي الشيطان عليه؛ والقط له تسع أرواح (أو سبع) فإذا أحد آذى قطاً وحرمه من روح من هذه الأرواح فإن القط لا ينسى له ذلك بل يظل ينتابه بسوء الحظ أو ينتقم منه بصورة أو صور أخرى. وفي اعتبارات الناس عامة في أوروبا وافريقية على السواء أن قتل قط أو معاملته بالسوء مجلبة لسوء الحظ، ولعل السبب في ذلك أن الأديان القديمة كانت تنظر إلى القط على أنه حيوان مقدس وترى أن العقاب سيحل بمن يسيء معاملة هذا الحيوان جزاءً له على سوء فعله. وفي اعتقاد الكثيرين من أصحاب هذه الأديان أن أكل شيء من جسد هذا الحيوان فيه نفع للآكل، ومن ذلك العصيدة التي تعمل من بعض أعضاء القط الأسود فإنها تشفي من مرض السل.

ورؤية قط أسود نذير سوء في ألمانيا وبريطانيا والـولايات المتحـدة.
والقط الأسود يجلب سوء الحظ على الخصوص إذا اعترض طريق شخص ما ماراً من أمامه. ولا ضرر من اقتناء قط أسود لأن وجوده في البيت مجلبة لحسن الحظ. والسود في جنوب الولايات المتحدة يرون في القط الأسـود أنـه مصدر أذى وشؤم وأنـه يجلب الأمراض ويـأتي بالمـوت والقط الأسـود ساحر والقطة السوداء ساحرة أو قرينة الساحرة، بـل هي الشيطان بنفسـه أو هي رسـول من الأموات، في اعتقـاد الزنـوج والأوروبيـين. والقط الأسـود يـرى الأشباح والجن التي تخفى على الإنسـان، وعين القط تتخذ عـوذة أو حـرزاً عند السـود في جنوب الـولايات المتحـدة وتستعمل في السحـر كما يستعمل شعره ولا سيما منه ما أحاط بفمه من جانبيه.

والقط إذا غسل وجهه بكفه فذلـك علامـة على قرب نـزول المطر أو عـلامة على تحسن الـطقس والجو أو إرهـاص بقدوم زوار أو ضيـوف. ولا سيما إذا غسل وجهه في غرفـة الزوار. وفي اعتقـاد الكثيرين أن القط وهـو يغسـل وجهه يستقبـل الريـح ولكن لا يدل ذلـك على أن ريحـاً ستهب من تلك النـاحية. وفي بعض مقـاطعات الـولايات المتحـدة قول بـأن القط إذا أطـلّ من شباك فمعنى ذلـك أن القط يتوقـع نزول المـطر، وفي ولايـة نيـو انكلند في الولايات المتحدة أن اتساع بؤبؤ عين القط وضيقه مثـل الساعـة لتعيـين الوقت في النهار. ويقال أيضاً إن اتسـاع البؤبؤ دليل على المـد في البحر وأن ضيقه دليل على الجزر.

وعند البحارة في إقليم ويلز في بريطانيا أن القط إذا ماء في السفينـة ودام على موائه فإن ذلك نذير بأن السفرة البحـرية ستكـون منحوسـة. وإذا كان القط في السفينة لعوباً مرحاً فالبحارة يتوقعون عاصفة من وراء السفينـة وأي بحار من بحارة السفينة يستطيع أن يثير عاصفة في البحر لو أنه يحبس قطاً أو قطة تحت قِدر. وفي الريـف في إنكلترة وهم عند النـاس بأن القـطة التي تلد في شهر أيار (مايو) لا تصيد الفئران وإنما تجلب إلى البيت

حشرات الحباحب التي تطير في الليل ولها نور يشع من ذيلها. وفي مقاطعة (سسكس) في الجنوب من إنكلترة رأي للناس عن أن القطة التي تلد في شهر أيار يغلب عليها أن تكون سوداوية المزاج. وبعض الناس يقول إن النوم في الفراش مع القط أو القطة شيء فيه سعد. وبعضهم الآخر يعتقد أن القط في الفراش يمتص نفس النائم. وفي بعض الأجزاء من أوروبا أن القطاط تأكل جثث الموتى، وأن القط إذا قفز على جثة شخص ميت فإن الجثة تنقلب إلى عفريت يمص الدماء، ولذلك فإنهم كانوا يوقفون الجنازة ولا يدفنون الميت إلا بعد أن يطاردوا القط حتى يقتلوه. وكانت القطاط في بعض أنحاء فرنسا تعتبر بأنها عفاريت أو شياطين وكانت تحرق في أيام معينة.

ويعتقد في القطاط أنها تسبب كثرة الأولاد عند المتزوجين. فكان العريس والعروس عند الزفاف وفي الخلوة يأتيان بقط أو قطة في مهد ثم يهزان المهد كما يهز الطفل فيه. والناس في بوهيميا كانوا يدفنون قطاً أو قطة في المزرعة لإخصابها، كما كان يفعل أهل سيليزيا في ألمانيا بشأن ما يسمونه بروح الحقل أو المزرعة.

وعند الناس في بعض نواحي أندونيسيا وبعض نواحي ماليزيا أن غسل قط أو قطة في ماء يجلب المطر.

* * *

بحث في تاريخ القطاط..

ولكن ما أصل القط من بين الحيوانات؟ نحن نعرف أنه من الفصيلة السنورية ومنها الأسد والنمر والفهد والببر وغيرها، إلا أنه أصغر هذه الحيوانات أو من أصغرها، ويغلب عليها أن تكون من الوحوش اللاحمة، تفترس ضعاف الحيوانات ولا يفترس بعضها بعضاً، ومنها ما يعيش منفرداً كالسنور ومنها ما يعيش معاً كالأسد مع لبوته وأولاده.

واهتم الباحثون في مبحث منشأ القط ولا سيما القط الأهلي، ولم يعتمدوا في بحثهم على الأساطير والخرافات كالأسطورة التي تقول إن القط من الأسد لأنه عطسه من أنفه في سفينة نوح، واعتمدوا في ذلك على كتب دينية عند الأقوام المختلفة أو على الآثار القديمة كآثار الفراعنة أو آثار الموهيقان أو الماهيقان في شمال أمريكا من قبائل الهنود الحمر، وفي آثار الفراعنة دلائل كثيرة على القط وعلى أنه كان من معبوداتهم، كما أن القط كان من معبودات الهنود الحمر، وهم كما يظهر أقدم تاريخاً من الفراعنة. ولكن من أين جاء القط إلى الفراعنة منذ الأسرة الخامسة؟ يقال إن القط كان يعيش متوحشاً في إفريقية، ويقال إن الإفريقيين كانوا يعرفون القط من أقدم الأزمنة وكانوا ينظرون إليه بشيء من الخشية والهيبة، وكانوا إذا أكلوا لحم الوحش والكلب لا يأكلون لحم القط. وزاد من احترامهم للقط أنهم كانوا وهم يعملون جنوداً للفراعنة يشاهدون فتك القط بالفئران والجرذان. وهذا شأن القط الداجن. فهل القط الداجن أصله القط البري؟ اتفق الثقات في هذا البحث أن القط الداجن لم يتحدر من القط البري، بل إنهم متفقون على أنه ليس لديهم أي دليل على أصل القط الداجن، وأن كل ما يقال عن أصله هو من قبيل الحدس والتظني، ولم يصح عندهم أن القط الأهلي هو من الفهد، ولو تشابهت الخليقة والصفات، وإن كان بعضهم يرى أن القط الأهلي نشأ من الفهد بحالة تطورية طارئة لم تكن تدريجية والله أعلم.

وتاريخ القط الأهلي يبدأ بمصر. والذي نعرفه معرفة اليقين أن القط كان محترماً عند الفراعنة، وكان عقاب من يقتل قطاً الإعدام قتلاً وبلغ من إعجابهم بالقطاط أن المرأة التي كانت تشبه القطة في خفة حركاتها ومرونة جسمها ولها في لون عينيها شبه بلون عيني القطة كانت من المرغوب فيها للزواج أو للتسري. وقبل نحو مئة سنة أو أقل كشف باحثو الآثار في بني حسن في مصر مقبرة للقطاط المحنَّطة عددها يقرب من ثلاثمائة ألف قِط

وقطة. ومن غرائب الظروف أن رفات هذه القطاط نقلت من مصر إلى إنكلترة لتستعمل سماداً للأرض. وفي ذلك الحين ذكرت مجلة مصورة إنكليزية أن عشرين طناً من رفات القطاط نقلت من مصر إلى ليفربول وهناك وزعت على الفلاحين والمزارعين لاستعمالها في تخصيب الأرض وكان ثمن الطن الواحد أربعة دنانير. وفي سنة ما قبل الحرب العالمية الأولى قام عالمان فرنسيان بفحص عدد من الجثث المحنطة لأولئك القطاط وتبين لهما أن القطاط من أصل حبشي. وسواء صح ذلك أم لم يصح فإن تخصيص مساحة واسعة من الأرض بين فرعي نهر النيل على بعد من بنها العسل على الخط الحديدي من الإسماعيلية إلى القاهرة لدفن القطاط فيها دليل على حرمة تلك القطاط عند المصريين القدماء بخلاف ما عليه القطاط الآن في مصر من عدم الرعاية وقلة الاهتمام. والقط منذ دخوله في التاريخ عند الفراعنة اكتسب صفة الامتياز وهالة التقديس، وكان القط الذكر حليف إلآهة الشمس وعدو الحية إلآهة الليل أو الظلام، وكانت القطة محبوبة الأهلين وكانوا يعتبرونها من سيدات السماء. وظل هذا التقديس قائماً على مدى ألف سنة إلى أن اضمحل حكم الفراعنة، وجاءت المسيحية وهي أعدى أعداء القطاط، فقضت على هذا التقديس وأحلّت القط محلّ الكره والإهانة والتعذيب، كما رأينا في سابق الكلام وكما سنرى في لاحقه. والغريب في العهد المسيحي أن الكلب الذي كان مذموماً مدحوراً أخذ مكان القط من الحب والتدليل، ولعلّ ذلك بسبب ما عرف عنه من الوفاء والطاعة والمدافعة عن صاحبه. وهذا بعكس ما جاء به الإسلام بشأن الكلب وبشأن السنور أو القط.

وهنا سؤال لا بد من طرحه، فإن الكلب في مصر القديمة كان مفيداً، فلماذا نزل عن مكانته وتخلى عنها للقطط، ولماذا أصبح القط في مقام الصدارة وأصبح الكلب مرذولاً محقوراً؟ جواب هذا السؤال عسير، ولعلّ التعليل الطبيّ قد يوجد لنا منفذاً نصل منه إليه، فإن الفراعنة من

الملوك والأمراء كانوا يتزاوجون فيما بينهم في درجات من القرابة الدانية، وكانوا ربما أُصيبوا بداء يعرف الآن بالصَّرع، وكان يقال له: داء العالية، لأنه كان يصيب علية القوم من ملوك وأمراء، وعلائم هذا الداء تشبه علائم داء الكَلَب، ولو أن الصرع غير مميت والكَلَب مميت. ولما كان الملوك والأمراء في منعة من داء الكَلَب وكان عامة الناس معرضين له فإن الكلْب أصبح نجساً وتحاماه الخاصة والعامة وأقصي عن البيوت والدور والقصور والمعابد.

فلما جاءت المسيحية عكست الاتجاه فأقصت القط وقربت الكلب، وأباحت للكلاب دخول الكنائس، وسمحت لأرباب الصيد بدخول الكنائس ومعهم قطعان الكلاب.

وإذا نظرنا إلى اليونان والرومان وجدنا أنه لم يكن لديهم ما يشير إلى عنايتهم بالقطاط أو الكلاب، ويقول هيرودوتس إن المصريين يتهمون اليونان بأنهم سرقوا على ممر القرون العلوم منهم وسرقوا علم الفلك والفلسفة والهندسة وغيرها وسرقوا القطاط. ولا بد أن يكون اليونان قد علموا بمعزّة القطاط لدى المصريين وعلموا أنه ليس من اليسير عليهم أن يأخذوا القطاط من مصر ليستعملوها ضد الجرذان والفئران. وعلى كل فقد نجحوا في استراق القطاط من الأكسر وطيبة. وحاول المصريون استرداد تلك القطاط من اليونان واستعملوا الجواسيس لذلك. وأفلحوا بعض الشيء في استردادها، ويقال إن الإسكندر المقدوني كان يكره القطاط حتى إنه غزا مصر للقضاء على القطاط فيها ولكنه لم يفلح في ذلك لقصر مدة بقائه هناك.

ولم يكن الرومانيون أفضل من اليونان في تقديرهم للقطاط، ولكن قطاً (أو قطة) كان السبب في نشوب الحرب بين مصر وروما. فقد حدث أن مواطناً من روما قتل عرضاً قطاً في مصر، فهاجت هائجة العوام وقبضوا على المواطن الروماني ورجموه بالحجارة حتى مات. ومن ثم ثارت

العداوات بين البلدين وأسفرت عن موت مارك أنطونيوس وكليوباترة، ولكنها لم تسفر عن القضاء على القطاط.

والهندوس في الهند يقدسون القط، وتنص كتبهم الدينية على وجوب إيواء كل شخص لقط واحد على الأقل. ودخل القط بلاد فارس في القرن الميلادي، ودخل الصين حول سنة ألف قبل الميلاد، ومن الصين إلى اليابان حيث كانت الفئران تعيث فساداً في صناعة الحرير. وفي سنة ٩٩٩ وفي اليوم العاشر من القمر الخامس وفي القصر الامبراطوري ولدت قطة خمس قطاط صغار، واستغرب الامبراطور غاية الاستغراب لولادة تلك القطاط وأمر وزراءه بأن يأخذ كل منهم قطة صغيرة ويربيها كما ربي هو. ولما كبرت القطاط أمر الامبراطور بزيادة نسلها، وبازدياد القطاط نجت صناعة الحرير من آفة الفئران.

وفي أوروبا كانت اسكتلندة أول بلد من بلاد الشمال تؤوي القطاط، وحكاية ذلك أن الملك فركس Fergus الأول الأسكتلندي كان جده الأول القائد كالشيلس Galsthelus رئيس قواد الجيش المصري حينما كان موسى يقود قومه من مصر إلى صحراء التبة. وقد فني الجيش المصري في البحر الأحمر ونجا القائد كالشيلس هو وزوجته وما يملك، وزوجته هذه واسمها سقوتا Scota كانت بنت فرعون مصر، وفضلت أن تتبع زوجها إلى أي بلد في أوروبا وتبعته إلى البرتغال، وهناك أسسا ملكاً وأنشآ مملكة سمياها بريكانتيوم Brigantium. وبعد أكثر من ألف سنة انتقل فيركس أحد أحفاد كالشيلس إلى جزيرة في الشمال الغربي من أوروبا وسماها سقوتا على اسم زوجة كالشيلس، ومن هذا الاسم كان اسم اسكتلندة المعروف الآن، وأدخل فيركس المذكور أبناء وبنات القطاط الأولى من وادي النيل إلى بلده الجديد. ويقال إن اسم كتان Cattan الذي يطلق على إحدى القبائل الاسكتلندية مشتق من Cat أي قط وأن الاسم أمير كيثنس Caithness ما هو في الأصل إلا أمير القطاط.

وفي القرن الخامس الميلادي دخل القط أوروبا عن طريق هولندة حيث حل الرومان وحيث حلّت عند مصب نهر الراين قبيلة عرفت باسم أصحاب القط. وكان الرهبان من مصر يفدون على هولندة وغيرها ويجلبون معهم القطاط. وفي ذلك العهد غزت الأقوام البربرية أوروبا وأطلقوا فيها يد النهب والسلب، وجلبوا معهم الطاعون وجلبوا معه الجرذان ولم تكن هذه معروفة في أوروبا من قبل. ثم أدرك الناس منفعة القطاط، ووضعت السلطات في مختلف البلاد قوانين لحمايتها، وارتفع ثمن القط وصار يباع بالذهب، وحرّم قتله، وفرضت غرامة على القاتل على أشكال مختلفة منها أن قاتل القط كانت غرامته أن يدفع كمية من الحبوب تكفي لتغطية جسم القط من طرف ذيله إلى طرف فمه وهو ممتد على الأرض. وظهر في أوروبا ولا سيما في ألمانيا بعد موت كليوباترة بألف سنة مذهب يقال له فريا Freya في تقديس القط، وظل المذهب قائماً إلى أن فشت الديانة المسيحية فكانت وبالاً على هذا الحيوان المسكين، ولاقى هذا الحيوان أنواعاً من العذاب والامتهان والقتل والحرق تشمئز منها النفس وينفر منها الضمير الحي، وكل ذلك لأن الكنيسة وأربابها كانوا ينظرون إلى القط بأنه الساعد الأيمن للساحرات وعبدة الشيطان بل هو الشيطان بنفسه.

* * *

كان هذا حظ القط النحس في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة إلى القرن الثاني عشر، حينما عاد الصليبيون من الأرض المقدسة وجلبوا معهم الجرذان السود، وانتشرت هذه انتشاراً مخيفاً، ولم يجد الناس علاجاً لها إلا القطاط التي جلبها الصليبيون معهم من فلسطين، وتعلموا العناية بهذا الحيوان واحترامه. ولكن لم تدم سعادة القط على هذا الحال إلا مدة وجيزة لا تزيد على العشرين عاماً أو نحو ذلك، حتى جاءت الكنيسة وجاء معها البلاء على القطاط. فقد طارد رجال الكنيسة القطاط أنى وجدت وقتلوا منها مئات الألوف حرقاً وصلباً وتعذيباً، وكان ذلك يكون في كل يوم

أو في مواسم معروفة كموسم القديس يوحنا وهو موسم اشتهر بعملية حرق القطاط، فقد كانوا يقيمون عموداً في وسط ساحة وحول العمود نار موقدة، وفي الوسط حول العمود عدد من القطاط كانت تلجأ إلى العمود هرباً من النار وكانت في محاولتها الإبقاء على الحياة يتقاتل بعضها مع بعض وهي تتعلق بالعمود في منظر يذوب منه القلب الرحيم حزناً وشفقة على هذا الحيوان المسكين. وفي النهاية كانت هذه القطاط تتهاوى من العمود فتتلقاها النيران المتأججة على الأرض فتهمد فيها وسط ضحكات القوم وتهليلاتهم.

وكانت القطاط تحاكم كالبشر ويحكم عليها، وكان أصحابها المقتنون لها يحاكمون وكانت التهمة أنهم يستعملون القطاط للسحر. وفي سنة ١٤٨٤ تزعم البابا انوسنت الثامن Innocent محاربة القطاط ومحاربة أصحابها. وكانت النساء أكثر الناس اتهاماً بجرم اقتناء القطاط ورعايتها لأن النساء كن يتهمن بتعاطي السحر بالاستعانة بالقطاط التي كانت تعد من رسُل الشيطان. وأعدم من أولئك النساء عشرات الألوف، وظل الحال على هذا المنوال أكثر من ثلاثة قرون أو أزيد، حتى إن النساء بعد كرومْوِل بمئة سنة كنّ يقتلن لهذا الجرم، وقد حوكم من النساء أكثر من ألفي امرأة في أمريكا في مقاطعة نيو انكلند وحدها للسبب نفسه. ولئن انقضى عهد محاكم التفتيش وعهد محاكمات النساء الساحرات مع قطاطهن في العالم المسيحي في أوروبا وأمريكا فإن الناس في هذا العالم ما زالوا يحتفظون في أذهانهم ببعض الأفكار التطيرية الخاصة بالقطاط، فهؤلاء الناس لا يزالون يتطيرون من القط الأسود، وأنهم إذا رأوا قطاً أسود يجتاز الطريق ضربوا بيدهم على خشب أو شيء من الخشب تفادياً للنحس من ذلك القط.

والبوذيون يرعون القطاط ويتيمنون بها، وفي الحرب ضد اليابان في برما في الحرب العالمية الثانية كانت القطاط مصدر عون للحلفاء عامة

ولبريطانية خاصة. وكان الحلفاء والبريطانيون يريدون بناء درب عظيم يخترق برما لغاية استراتيجية مهمة، وشرعوا في بنائها، وطفق اليابانيون يحملون بدعاياتهم على هذا الدرب بقصد تنفير البرميين عن التعاون مع الحلفاء في بنائها. وخطر لضابط بريطاني أن البرميين يحبون القطاط ولا سيما البيض منها، فقرر الاستفادة من هذه المحبة للقطاط فأشار بأن ترسم القطاط البيض على جميع سيارات النقل وأمر بإيواء تلك القطاط في المعسكرات وفي الخيام وأماكن الجنود والمطارات. وسرعان ما انتشرت أخبار هذه القطاط وأخبار عناية الجنود بها، فأوّل البرميون هذه الظاهرة بأنها علامة على رضى الآلهة عن الحلفاء وأنها إيذان بقرب انتصارهم، فأقبلوا على العمل في بناء الدرب، ولم يعيروا دعاية اليابان إذناً واعية.

وشبيه بذلك ما جرى للفرس مع المصريين سنة ٥٠٠ قبل الميلاد. فإن الفرس تحت قيادة قمبيز Cambyses حاصروا مدينة كانت تعرف باسم بلوزيوم Pelusium بالقرب من بور سعيد الآن وكان معهم مئات من القطاط. فخاف المصريون المحاصرون أن يقتلوا هذه القطاط في دفاعهم ضد الفرس وأشفقوا من ذلك وآثروا التسليم، وسلّموا.

* * *

ولنعد الآن مرة أخرى إلى أوروبا. فإن القطاط في أوروبا ظلت تتراوح بين الخطر على أرواحها والأمان. ففي بلجيكا في سنة ١٧٢٠ عادت إلى الظهور عادة مقيتة كانت قد ألغيت سنة ١٦٧٤، وهذه العادة هي أن الناس كانوا يصعدون بالقطاط إلى أعالي الأبراج في الكاتدرائيات ويطوّحون بها.

وفي ألمانيا أصدر مطران مدينة كولونيا واسمه كليمنت Clement في سنة ١٧٤٧ أمراً يقضي بقطش أذان القطاط وباقتضاء غرامة مالية عن كل قط (أو قطة) يوجد غير مقطوش الأذنين.

ولما جاء باستور Pasteur الفرنسي بنظرية الجراثيم والمكروبات، أخذ الناس يتفكرون في معنى ذلك وقالوا إن المكروبات تعيش في الأوساخ والأماكن غير الصحية وعلى الحيوانات الأخرى القذرة وغير القذرة. وأخذوا يتجنبون القطاط والكلاب والأبقار والأغنام والعصافير والطير، ثم أدركوا أن القطاط نظيفة لأنها تغسل نفسها بنفسها فلم يقصوها عنهم. وساعد على تقريب القطاط والكلاب وغيرها نشوء الطب البيطري.

وفي العالم الغربي رجال عظام اشتهروا بحبهم للقطاط ومنهم بترارك Petrarch الروماني وبعده ريشليو وبوانكاريه وتين في فرنسا ثم دزرائيلي في بريطانية، وبودلير ومالارمي في فرنسا وأليوت في بريطانية وغيرهم كثير[١].

---

(١) المراجع:

- الحيوان للدميري.
- الحيوان للجاحظ.

«Cult of the Cat»
«Just Cats», by Fernard Miry.

فصل في الحيوانات عامة

المعروف أن المخلوقات مقسمة إلى حيوانات ونباتات وجمادات وأن الحيوانات من حيث التطور أرقى المخلوقات وأن أرقى الحيوانات الإنسان، وبحثنا في هذا الفصل مقتصر على الحيوانات دون الإنسان، ولا نخص بالبحث حيواناً دون آخر، وإنما نلقي نظرتنا على الحيوانات عامة وعلى ما تشترك فيه هذه الحيوانات من حيث صفاتها وموضعها في هذا الكون.

الحيوان موجود في كل مكان من العالم، وانتشار الحيوان أوسع من انتشار النبات. والكثير من الحيوان يعتمد في معيشته على النبات لأن النبات من جملة المخلوقات وهو الوحيد القادر على إيجاد المواد العضوية من المواد غير العضوية بالاستعانة بضوء الشمس. فالحيوان قادر على العيش في الأماكن التي يوجد فيها النبات.

والحيوان في معيشته يتأثر بظروفه المعيشية وبالبيئة التي يعيش فيها. ففي العالم مناطق صحراوية ومناطق حارة ومناطق باردة، وفيه أنهار وبحار، وفيه خريف وشتاء وصيف وربيع. والحيوانات ومعها النباتات تنشط في الربيع إلى أن يأتي الخريف والشتاء، وفيهما يتوقف هذا النشاط ويشمل

هـذه المخلوقات سُبات، وتهاجر الطيور من البرد إلى أماكن الدفء. وللطير إحساس خاص بتقلب الطقس واختلاف الفصول، وهي طير قواطع إذا هاجرت من الأماكن الباردة إلى الأماكن الدفيئة. ولما كانت الطير تعيش على الحشرات والذباب والديدان فقد جهزتها الطبيعة بنظر حاد. والنهار الطويل عون للطير على العيش، والليل الطويل عناء لها ومصدر أخطار. والشتاء شديد على الطير لقصر نهاره وطول ليله.

أما الحيوانات فقليلة الهجرة بالقياس إلى الطير، وهي تفضل السبات في الشتاء، كالحيات والسلاحف والضفادع والأسماك والحشرات. وحياة الحيوانات على ضربين: حياة على اليابسة وحياة في الماء كالبحار. والحيوانات التي تعيش على اليابسة تعيش في وسط وهو الهواء أخف بكثير من أجسامها، وغذاء هذه الحيوانات موجود على سطح الأرض وفوق سطحها وتحت سطحها، ولكي تتمكن هـذه الحيوانات من الحصول على الغذاء ينبغي لها أن تكون متحركة إما بالجري وإما بالزحف وإما بالطيران في الجو وإما بالانجحار داخل الأرض. وحيوانات اليابسة في حاجة إلى التنفس وأخذ الأوكسيجين من الهواء وإلى الماء في الوقت نفسه، وقدرة هذه الحيوانات على البقاء مرهونة بقدرتها على التكيف بحسب تقلبات الجو وبحسب اختلاف الماء بين جامد ومائع. والماء أثقل من الهواء بأكثر من ثماني مئة مرة، وهو بثقل بروتو بلازمة الدم، وعلى هذا فإن الحيوانات التي تعيش في الماء تعوم فيه من غير صعوبة. ومن حيث الأسماك والحيوانات البحرية فإنها تتعرض لضغط على أجسامها من جراء الضغط المعروف بضغط السوائل، ولا سيما في أعماق البحر وعلى قعره. ومع أن البحار تغطي نحو سبعة أعشار من سطح الأرض فإن الحيوانات التي تعيش فيها أقل من ربع مجموع الحيوانات قاطبة.

ولا يوجد في البحار ضوء لأن ماء البحر ليس شفافاً كالهواء، وضوء الشمس حتى في المناطق الاستوائية لا ينفذ من سطح البحر إلا لعمق لا

يتجاوز بضع مئات من الأقدام، وتبقى أعماق البحار الغويطة في ظلام، والحيوانات التي تعيش في تلك الأعماق لا تعرف ليلاً ولا نهاراً، ولا تعرف أنها تعيش في ظلام لأنها لم تعرف الضوء. وهي أيضاً لا تعرف برداً ولا حراً كحيوانات اليابسة لأن ماء البحر في تلك الأعماق يكون في درجة مستوية من الحرارة لا يعتريها كبير تغيير. ولما كانت حيواناتِ الأعماق البحرية لا تعرف ليلاً ولا نهاراً ولا صيفاً ولا شتاء فإنها لا تعرف معنى للزمن، والعالم عندها واحد فهو ظلام في ظلام.

وحيوانات اليابسة كما قلنا تعيش على سطح الأرض وفوقه وتحته، وتعيش على السطح على ارتفاعات مختلفة، فهي مثلاً تعيش على قمم الجبال حيث يكون الضغط الجوي نحو ٦ أوقيات على كل بوصة مربعة بالنسبة إلى الضغط الجوي عند شاطىء البحر الذي يقدر بـ ١٥ أوقية لكل بوصة مربعة، وبالنسبة إلى ضغط الماء في أعماق البحر الذي يبلغ عشرة آلاف أوقية لكل بوصة مربعة. ومن حيث الحرارة فإن الحيوانات قادرة على العيش في درجة من الحرارة تقل قليلاً عن درجة التجمد وفي درجة تعادل خمسين درجة مئوية، وبعضها قادر على العيش لمدة قصيرة في حرارة نحو ٣٧ درجة تحت الصفر وفي درجة نحو ٧٧ فوق الصفر، ومدى الحرارة في الكون الذي نعيش فيه يتراوح بين ٢٧٣ درجة مئوية تحت الصفر إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية فوق الصفر وهو ما تكون عليه الحرارة على سطح الشمس. فالحيوانات تعيش في مدى ضيق من الحرارة بالنسبة إلى مدى الحرارة في الكون.

الإنسان وسيطرته على الحيوان

يقال إن المدنية بدأت لمّا عرف الإنسان زراعة العشب في الوديان وعرف تدجين الحيوانات ذوات الظلف وتدجين الكلاب والقطاط. والمنطقة التي جرى عليها ذلك هي الممتدة من الشمال الغربي والجنوب من آسيا والشمال من افريقية، ومن هذه المنطقة نتج الشعير والقمح والشوفان والذرة والرز وغيرها كما نتج منها الخيل والبقر والأغنام والخنازير والإبل، وكذلك الدجاج والحمام والكلاب والقطاط. وتعلم الإنسان زراعة هذه المزروعات وتدجين جميع هذه الحيوانات وتعلم الإنسان لبس الثياب للتدفئة وتعلم بناء البيوت يأوي إليها هو ويؤوي فيها حيواناته ويخزن فيها منتجاته الزراعية. وبذلك انقطع الإنسان عن صيد الحيوانات الوحشية لمطعمه ولملبسه، وصارت لديه المحاصيل الزراعية الكافية ولم يعد يحتاج إلى جمعها من هنا وهنا على مسافات متباعدة.

* * *

واصطنع الإنسان لنفسه صديقاً وصاحباً من غير جنسه وهو الكلب ولعلّ الكلب كان في أول الأمر ساعد الإنسان الأيمن في مطاردة الصيد وتتبع آثار الوحوش وما شابه ذلك، ومن ذلك أن الكلب وتدجينه يعدّان من

العوامل المهمة في نشوء الحضارة عند البشر، ونشوء هذه الحضارة منوط بنشوء مجتمع قائم على زراعة المحاصيل وجمعها وخزنها، وعلى حماية الإنسان من عدوى الوحوش، وعلى استعمال الحيوانات الداجنة وأولها الكلب. ولا يُعرف منشأ الكلب على وجه التحقيق، ويُظَن أنه متولد من الذئب الآسيوي القديم.

واتفق تدجين الكلب مع تدجين القط، ولكن لا يعرف متى كان هذا التدجين تماماً ولا أين كان. ويقال إن أصل القط الأهلي قط بري في مصر أو في الحبشة. وقد تلا ذلك تدجين الإبل، وهذا التدجين مشمول بالغموض لأن أصل الجمل غير معروف، ويظن أن منشأه الأول في آسيا أو في بلاد العرب خاصة ومنها انتقل إلى افريقية ثم إلى غيرها، وهو على نوعين وهما الجمل بسنام واحد والجمل بسنامين، والغالب أن أصل الأول من بلاد العرب وأصل الثاني من وسط آسيا.

وجاء تدجين الفرس في خطوة أخرى، والمظنون أن الفرس من أصل آسيوي ومن فرس وحشي قديم. وتدجين الأبقار رسخ الحياة الحضارية عند الإنسان لأن الأبقار لها فوائد عدة تفوق فوائد الكلب والقط والجمل، لأنها مصدر للحم لطعام الإنسان ومصدر للّبن يشربه الإنسان ويتغذى به، وهي حيوان للنقل وحيوان لجمع المحاصيل وللحرث.

وتدجين الفيل والخنزير والأرنب والأغنام من هذا القبيل، وامتدت عملية التدجين إلى تدجين الوحوش كتدجين الفهد واستعماله في صيد الظباء وغيرها. ثم كان تدجين الطير كالحمام والوز والدجاج والبط وغيرها.

أعداء الحيوان والإنسان

إن الإنسان لما سكن في بيت له واتخذ لنفسه أرضاً يزرعها ويأكل من غلّتها ودجّن الحيوانات كالكلب والأغنام والأنعام والخيول وغيرها عرّض نفسه وزروعه وحيواناته لآفات مختلفة لم يكن يتوقعها. فالإنسان نفسه أصيب بعوادي القمل والبق والبراغيث والبعوض والخنافس والفئران والأفاعي، وابتليت زروعه بالجرذان وبالحشرات وتعرضت حيواناته لهجمات الوحوش من سباع وذئاب وثعالب وبنات اوى وغيرها.

وبالتفصيل فإن الإنسان تعرض للخطر من الأفاعي والتماسيح وكلاب البحر وغيرها مما ذكرنا آنفاً. والأفاعي المقصودة هنا هي الأفاعي السامة وهذه تشكل ثمانية في المئة من محموع الأفاعي البرية والمائية. والبرية من الأفاعي السامة على ستة أنواع. وأخطر هذه الأنواع الحنفيش المعروف بالكوبرا، ومن أنواع الحنفيش هذا نوع يقال له الحنفيش النفاث، وهو عند الخطر يطلق من فمه سحابة من السم تخرج أولاً كالشؤبوب ثم تنتشر في الهواء كالضباب، فإذا أصاب رذاذها العيون أحدثت فيها ألماً شديداً وقد تحدث فيها انطماساً للرؤية أو تحدث العمى.

وليست الحشرات والهوام أقل ضرراً على الإنسان من الأفاعي،

ومنها القمل والبق والبراغيث، وكلها هوام مصاصة للدم تعيش طفيليات على ما تمصه من دم الإنسان. فكما أن الإنسان اعتدى على غيره من الحيوانات كذلك الحيوانات اعتدت على الإنسان، واعتدت على زروعه ودجاجه وغنمه وبقره وطيره وخيله وإبله وصوفه وقطنه وثيابه ومخزونه من الحبوب والطعام. فالأغنام أصبحت طعمة للذئاب والكلاب الوحشية والأسود والنمور، حتى إن العقبان والنسور تسلطت على أولاد الأغنام. وعدت الثعالب وبنات آوى وبنات عرس على الدجاج والحمام. ولم تكن الهوام أقل نشاطاً، كالذباب والجراد والبعوض، وكالخنافس في البيت وفي المزرعة، وكالديدان آكلة الثياب أو الخشب أو الكتب، أو كالأرضة والسُّرْفة والعثة والسميكة.

وعدت الحشرات على كل شيء تقريباً، بالقرض والنخر والثقب وكانت هذه الحشرات السبب في تعطيل أسلاك التلفون بل وفي إفساد العيارات النارية وفي خرق الأغلفة المعدنية وقطع الأسلاك في أجهزة الراديو والتلفزيون.

ومن الهوام أيضاً الديدان الدقيقة والعلق والقراد، وأكثرها يسبب أمراضاً مختلفة. ومنها المكروبات، والمكروبات تدخل في مجاري الدم كما تدخل الديدان في الأمعاء والكبد والعضلات والمجاري البولية، ومنها الذباب الناقل للأمراض، كالبعوض.

الفصيلة السّنورية

الفصيلة السنورية تشمل الحيوانات الشبيهة بالسِّنور، وهي الأسد والنمر والبَبر أو السبع الهندي والفهد والوشق وسبع الجبل واليغور والسنور البري، وأعظم هذه الحيوانات البَبر أو السبع الهندي، ويتواجد في الهند وفي أندونيسيا وفي شرق الصين وفي اليابان والملايو وقد يبلغ طوله ١٢ قدماً، والذي في الهند أصغر من غيره ويبلغ طوله ١٠ أقدام. ويعيش الببر

على افتراس الأبقار والخنازير البرية والحمر الوحشية، ولا يفترس الببر الإنسان إلا إذا شاخ.

والأسد أصغر جسماً من الببر، وطول جسمه لا يزيد على ١٠ أقدام ويبلغ طول ذيله ثلاثة أقدام، واللبوة أقصر جسماً من الأسد بمقدار قدم واحد: ويوجد الأسد في افريقية وفي غرب آسيا وكان يوجد في بلاد العرب وفي جنوب أوروبا. والأسد الافريقي يعيش على افتراس الجواميس والظباء وحمر الزرد والزرافات وصغار الفيلة والكركدنات، وقد يهاجم الأغنام والبشر.

والنمر موجود في افريقية، وفي الهند والصين وسيلان وجاوة وبورنيو. وهو وحش شرس يرهبه السكان في كل مكان، ويصل طول جسمه إلى ٧ ونصف قدم، وذيله يطول إلى ثلاثة أقدام. ويعيش النمر على افتراس الظباء والوعول والأغنام والقرود، وله رغبة شديدة في افتراس القرود والكلاب.

والفهد أو النمر الصياد له شبه بالسنور وبالكلب معاً، وهو أقبل حيوانات الفصيلة السنورية إلى التدجين، وقد استعمله العرب في الصيد، وهو أسرع حيوانات الفصيلة السنورية جرياً، بل أسرع الحيوانات قاطبة، ويوجد في افريقية وفي جنوب آسيا. وطول جسمه بين ٣ و٤ أقدام.

نظرة الإنسان إلى الحيوان[1]

في موضع سابق من هذا الكتاب أشرنا إلى بعض الاتجاهات في الفكر نحو الحيوان إجمالاً ونحو القط خاصة من وجهة دينية ووجهة دنيوية. والأمر قد يحتاج إلى بعض التفصيل فيما يتعلق بنظرة الإنسان إلى الحيوان.

لما خلق الله الإنسان وبوأه الجنة لم يشرك معه أحداً من الحيوانات، بل إن الحيوانات كانت في المرتبة الثانية بعد الإنسان وخصت بأن تكون أداة يستخدمها الإنسان لقضاء حاجاته. ولم يعترف الإنسان للحيوان بأن له روحاً أو بأنه حيوان يحس ويشعر بلذة أو بألم. وفي اليهودية والمسيحية نظرة احتقار وامتهان للحيوان، وهو في نظرهما بهيمة لا غير. ولم يكن اليونان ولا الرومان أحسن من ذلك في معاملة الحيوان، وفي الفلسفة اليونانية صمت عميق حول حق الحيوان، وكان أفلاطون بفلسفته المثالية ينظر إلى كل شيء على الأرض بأنه صورة ممسوخة، والإنسان قاصر عن الكمال، فكيف الحيوان. والرومان لهم نظرية خاصة في معاملة الإنسان،

---

(١) المرجع:

«Place of Aninals in human Thought» by E.Martimengo Cesaresco, 1909.

فالذي يتمتع بحق الاحترام هو الذي له صفة الشخصية، وهذا هو الروماني. والعبد والأجنبي لا يتمتعان بهذا الحق لأنهما ليسا شخصين، فالحيوان أحرى بأن لا يتمتع بذلك الحق.

وكان أرسطو المسؤول الأول عن خلق هوة بين الإنسان والحيوان مما جعل الحيوان يحتل منزلة حقيرة لم يكن فيها أكثر من شيء لا يحس ولا يشعر، وأنه فاقد للعقل. وأرسطو تلميذ أفلاطون، وأفلاطون يزعم أن أول من خُلِق هو الإنسان ثم خُلِقت النساء من الرجال الجبناء وخلقت الطير من الرجال خفاف العقول، والرجال الذين لم يكن لهم فلسفة في عقولهم خلقوا حيوانات تمشي على أرجلها، وصار الرجال الحمقى زواحف، وصار أصحاب العقول الفاسدة الجاهلة أسماكاً عقاباً على جهلها. ومثل هذه الآراء مع آراء الأفلاطونية المحدثة وآراء توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) تلميذ أرسطو غلبت على الأفكار في أوروبا وتعاونت مع النظرة الرومانية في جعل الحيوان في منزلة الجماد وفي حرمانه من الرحمة والحق. وانتشار فلسفة توما الأكويني في الكنيسة ونشوء الفلسفة الإنسانية المهتمة بالإنسان وحده في المحافل غير الدينية خلقت في النفوس استهانة بالحيوان وميلاً غير طبيعي إلى إهانته وإلى تعذيبه. وظهرت عند الناس عادات في تعذيب الحيوان كانت غاية في القسوة، منها مثلاً محاربة الثيران ومصارعة الدببة ورشق الديوك بالعصي وهي مربوطة حتى تموت وتعذيب القطاط بالنار الذي أشرنا إليه سابقاً، ولا تزال أمثال هذه التعذيبات موجودة في أوروبا مثل مصارعة الثيران ورشق الحمام بالحجارة. وكل ذلك في الأصل منشؤه أن الإنسان لما كان في الفلسفة اليونانية والاعتبارات الرومانية هو سيد الخلق فإن ما دونه كالحيوان لا قيمة له.

وزاد الطين بلة فلسفة ديكارت الفيلسوف الفرنسي (١٥٩٠ ـ ١٦٥٠) الذي رأى أن الحيوانات ناقصة من حيث العقل واللغة فهي والآلات سواء تتحرك وتعمل لا عن فكر وإرادة وإنما عن حركة لاإرادية كالساعة مثلاً.

وذكروا أن أتباع ديكارت الذين كانوا يجرون التجارب الجراحية على الكلاب وغيرها كانوا يفعلون ذلك اعتقاداً منهم بأن الكلاب والقطاط لا تحس بالألم. وتابع على ذلك من الجملة الفيلسوف باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢)، ثم الفيلسوف مالبرانش (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) وقيل عنه إنه ضرب كلبه يوماً برجله فقالوا له في ذلك فقال: «لِمَ هذا! ألا تعلمون أنه لا يحسّ! وما صرخات هذا الكلب إلا كصرير الباب أو الأخشاب»!. وجاءت هذه الفكرة تجاه الحيوان وفق مرام رجال الدين في ذلك الزمان. ويقال إن ديكارت اقتبس الفكرة من رجل إسباني اسمه غومث بريرا Gomez Pereira، وكان هذا الإسباني يقول إنه لما كانت الساعة تدلنا على الوقت وأن النحلة تصنع العسل فإننا نقول إن الساعة والنحلة آلتان. وبما أن كلاً منهما تعمل عملاً واحداً لا يحسن عمله الإنسان ولا تعمل عملاً آخر يعمله الإنسان استنتجنا أنها ليس لها عقل، ولكن الطبيعة هي التي تحركها وتدير أعضاءها. وقال ديكارت إن الكلب مثلاً في سلوكه يعمل عمل دواليب الساعة بصورة أوتوماتيكية، فهو لا يفكر ولا يحس البتة. وقال إن الله قادر على أن يخلق الحيوانات ويجعلها آلات، فكيف لا يخلقها ويجعلها آلات؟ وردّ على ذلك الفيلسوف الفرنسي ڤولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) فقال إن الله خلق للحيوان في جسمه ما يستطيع به الإحساس فكيف يمنعه الله من استعمال هذا الذي به يكون إحساسه؟ ورأت الكنيسة أن هذه الفكرة صحيحة وأنها تصديق وتبرير لمبدأ خلق هذا العالم. ووافق على ذلك باسكال، وقال مالبرانش إن الفكرة وإن كانت مناقضة للمعقول فإنها موافقة للدين.

ولما قامت حركة الرفق بالحيوان لاقت موجة عارمة من الاستهزاء والاستسخاف ولما أسس أصحاب هذه الحركة في لندن بيتاً لرعاية الكلاب ثارت في وجههم موجة من الغضب والمعارضة. وكان شوبنهور الألماني Schopenhauer (١٧٨٨ ـ ١٨٦٠) صديقاً للحيوان، وكان ناقماً على رجال

الفكر من دعاة حسن الأخلاق لأنهم لم يعملوا على تحسين أحوال الحيوان في دعوتهم. وكان يقول إن بني الإنسان هم شياطين الأرض وأن الحيوانات هي الأرواح التي يعذبونها. وفي رأي شوبنهور أن معاملة الأوروبيين للحيوانات تلك المعاملة البربرية مصدرها أن الأوروبيين كانوا ينكرون على الحيوانات أن لها أرواحاً أبدية تحشر في الآخرة. وكان لامارك الفرنسي Lamarck (١٧٧٤ ـ ١٨٢٩) يقول إن اكتشاف الحقيقة سهل بجانب إقناع الناس بها.

وكتب كاتب إيطالي اسمه كارلو لسّونا Lessona كتاباً ذكر فيه عبارة (ذكاء الحيوانات) وعرض الكتاب على المراقب في مدينة تورين وكان من رجال الدين فقرأ الكتاب ووقع على عبارة (ذكاء الحيوانات) فيه فقال: هذه العبارة (ذكاء الحيوانات) لا محلّ لوجودها. فقال له المؤلف إنها العبارة المستعملة في كتب التاريخ الطبيعي. فقال: إن كتب التاريخ الطبيعي في حاجة شديدةٍ إلى التعديل.

القط في الأسرار الدينية والسحرية

ذكرنا في جزء سابق من هذا الكتاب شيئاً عن القط في الديانة المصرية القديمة، ويظهر أن القط عند المصريين كان يمثل الأنوثة بين الآلهة، ويمثل القمر الذكورة في مقابل آلهة الشمس مثل رع وبتاح وأوزيريس وتم، وكان مقدساً في مدينة بوباستس التي كانت تقع إلى الشرق من دلتا النيل. والقمر ينير في الليل في مقابل الشمس التي تضيء في النهار، والقمر مستمد نوره من الشمس، فالقط في عينيه البراقتين في الليل يعكس ضوء الشمس ولذلك ففي عينيه شمسان تضيئان في الليل، ومن هنا جاء رأيهم في أن للقط بصراً ثانياً يرى ما لا يراه البصر العادي ي الليل، ويقول بلوتارك Plutarch إن إنسان عين القط ينفسح إلى أبعد حد في ليل التمام ويضيق في الليالي الأخرى عند تناقص القمر.

ويقال في عقيدة قديمة إنه إذا كسفت الشمس قامت معركة حامية بين النور والظلام وبين الخير والشر، والناس في أثناء ذلك في خوف شديد على إله الشمس من أن يبتلعه الثعبان فيضربون الطبول ويقرعون صفائح الأخشاب ويحدثون ضجيجاً عالياً يفزعون به الثعبان، وفي تلك الوهلة ينشط القط في السماء وينقض على الثعبان بمخالبه الحادة فيهرب

الثعبان ويختبىء في الظلام. وفي إنجيل لأصحاب مذهب الأدرية Gnosticism زعم بأن المسيح قال لمريم العذراء إن الظلام الخارجي ثعبان هائل الحجم له ذيل داخل في فمه وموجود خارج العالم ولكن يحيط به من كل جهاته، وفي هذا الظلام مواقع عديدة للعقاب الشديد عددها إثنا عشر موقعاً، وفي كل موقع حاكم، ولكل حاكم وجه يختلف عن وجه جاره. والحاكم في الموقع الثاني وجهه وجه قط ويسمونه خراخار، وفي الموقع الحادي عشر عدة حكام سبعة منهم لهم وجه قط..

* * *

وكان أصحاب الكيمياء السحرية يرون أن الجسم عالم أصغر فيه تجمع العالم الأكبر، وكان القلب عندهم يمثل الشمس والدماغ يمثل القمر، ولا يزال في كثير من اللغات كاللغة الإنكليزية إشارة إلى أن اختلال الدماغ أو العقل مرده التبدلات في حركات القمر وأشكاله كقولهم Lunatic و Lunacy و Moonstruck والمقمور في اللغة العربية هو المسلوب العقل. ونسبوا إلى القمر أنه يؤثر في صعود الغذاء في الشجرة من الجذر إلى الفروع وفي محصول العنب ومحصول القمح والحبوب وفي المد والجزر وفي الطقس. وفي جميع هذه الحوادث أسرار خفية يمكن التحكم فيها بالطرق السحرية على أيدي الكهان والكاهنات والساحرات.

وفي الأديان القديمة أيضاً ربط بين القط والقمر، وقد ألمحنا إلى ذلك قبل قليل، ولا غرابة إذاً في أن الساحرات لهن علاقة متينة بالقط وأنهن كن يتلبسن صورة القط إذا أردن بسحرهن إثارة الزوابع على السفن وكيف أن البحارة كانوا في اعتقادهم يرون الساحرات في أشكال القطاط. وعند الأسكتلنديين أن القط إذا خدش مائدة الطعام بأظافيره أو خدش أرجل الكرسي فإنه بذلك يثير الرياح، وذكروا عن شاهد عيان أن امرأة اسكتلندية رأت قطاً يفعل ذلك فانتهرته وقالت لابنتها أن تطرد القط من البيت لأنه كان يثير الرياح. وقالوا عن الساحرات في مكان يقال له مل

Mull أن الساحرات كن يأخذن أشكال القطاط إذا أردن إثارة العواصف وإغراق السفن. وذكروا عن ملك إسباني أنه بعث بسفينة حربية إلى ذلك المكان لينتقم من أهله لأنهم كانوا قد قتلوا ابنة له. فاجتمعت الساحرات في ذلك المكان على شكل قطاط وصعدت إلى أعالي سارية السفينة، وشعر ربان السفينة بذلك وكان يعرف شيطنة الساحرات فأبطل سحرهن، ولكن القطاط فزعن إلى رئيسة من رئيسات الساحرات فجاءت هذه في صورة قط كبير وصعدت إلى أعلى السارية وسرعان ما هوت السفينة إلى قعر البحر كجلمود الصخر.. ويوجد في أحد القوانين الإنكليزية القديمة في القرن السابع تحريم وعقاب للساحرات اللواتي يلجأن إلى الشياطين والعفاريت لإثارة العواصف. ويوجد قانون كان في عهد شارلمان في القرن الثامن ينص على عقوبة الإعدام في حق من يستعين بالشيطان في إثارة العواصف. والإشارة هنا إلى الساحرات، وقد بلغ بهن الأمر إلى أنهن كن يثرن الرياح الطيبة لجري السفن ويبعن هذه الرياح للبحارة. وفي حكاية عن أحد ملوك اسكتلندة أن ساحرة أخذت قطاً إلى عرض البحر ومعها صديقاتها من الساحرات يركبن الغرابيل والمناخل، حتى إذا وصلن بالقط إلى موضع معين ثارت عاصفة هائلة، وكان الملك في ذلك الزمن في سفينته عائداً من الدانمارك، واعترضت سبيل سفينة كانت تحمل مجوهرات الملك والملكة وهدايا ثمينة فأغرقتها، وكادت تغرق سفينة الملك.

* * *

والقط له مقام رفيع في الكلدانية والمجوسية أيضاً. والأصل في كل ذلك أن الإنسان منذ أقدم العصور كان مولعاً بمعرفة الغيب وأسرار الغيب والمعميّات عنه. وكان يسعى للكشف عن ذلك وتلمس السبل والوسائط إليه وتوصل إلى السحر ثم توصل إلى الأشياء التي تساعده في السحر ونشأ عن ذلك طبقة خاصة من الكهان والكاهنات ثم طبقة خاصة من الساحرات وكانت عدة هؤلاء العزائم والرقى وبها كانت تظن الساحرات بأنها تستطيع

استخدام الآلهة من جهة واستخدام الأرواح من جهة أخرى بما في ذلك الأرواح الطيبة والخبيثة. والتاريخ يشير إلى وجود السحر على هذه الطريقة من قديم الزمان في بلاد الكلدانيين في العراق وفي بلاد الفرس وفي بلاد بعيدة أخرى شمالية مثل فنلندة وغيرها. وكان الكهان يتصلون بالأرواح ويستحضرونها، كما كانوا يستخدمونها لأغراضهم، ويستعينون في ذلك بشتى الوسائل ومنها الحيوانات المقدسة كالقط في بوباستس والكبش في طيبة Thebes والثور في ممفيس وهليوبوليس والصقر في إيدو من أعمال مصر. وآمن المصريون القدماء بأن القط له من الكرامة السرية والقدسية ما يكفي بأن يقيهم من الشرور على أنواعها. وكان يُظن أن القط المقدس فيه من كل إله عضو، فرأسه من الإله رَع وعيناه من أوريس Uraeus وأنفه من ثوث وأذناه من نبرتشر Nebrertcher وفمه من تِم وعنقه من نهبكا Nehebka وصدره من ثوث وقلبه من رع وبطنه من أوزيريس وفخذاه من منثو Menthu ورجلاه من خنسو وقدماه من أمن ـ هوريس وعجزاه من هورُس وأسفل قدميه من رع وأمعاءه من مه ـ أوريت Meh-urit.

* * *

وقالوا عن علاقة القط بالمسيح، وذكروا أن القط ليس له ذكر في جميع أسفار العهد القديم اليهودي ولا في أسفار العهد الجديد المسيحي، وعللوا ذلك بأن اليهود كانوا يبغضون كل ما يمت بصلة إلى ما هو مقدس عند المصريين كالقط مثلاً أو بأن اليهود وكانوا قوماً بداة في أول عهدهم لم يتسن لهم أن يدجنوا القط في بيوتهم، ولعل الأصح أن اليهود لم يذكروا في كتبهم المقدسة جميعها حالة واحدة عن أي حيوان داجن عندهم أنسوا به وأنس بهم مع أن الأقوام من حولهم كان تؤوي الحيوانات في بيوتها وتعيش معها وتدجنها.

ولكن هذا الإغفال يصححه ما جاء في إنجيل غير معترف به وجد في إحدى الأديرة البوذية في التيبت، وذلك أن المسيح لما ولد في غار

كان معه في الغار ثور وفرس وحمار وشاة وكان تحت المذود قطة وأولادها وفوقه حمامات مع ذكورها. وعلى هذا فإن المسيح ولد وسط جمع من الحيوانات الأليفة. وجاء أيضاً في هذا الإنجيل عن حب المسيح للحيوان أن المسيح مرّ يوماً في إحدى القرى بجمع من خشارة الناس كانوا يعذبون قطة هناك، فأمرهم المسيح منتهراً إياهم بأن يكفوا عن سوء عملهم ذلك، ولكنهم لم يلتفتوا إلى أقواله وأخذوا يسخرون منها ويسبونه، فأخذ المسيح سوطاً وضربهم به وطردهم وقال لهم إن أباه في السموات جعل الأرض دار سعادة وهناء وهم يجعلونها بأعمالهم السيئة تلك جحيماً، فتهاربوا من وجهه، إلا واحداً منهم فإنه ثبت للمسيح وعاصاه، فدعا عليه فشلت يده، فاتهم المسيح بأنه ساحر. ثم جاءت في اليوم التالي أم ذلك العاصي واسترحمت من المسيح أن يرد على ابنها يده المشلولة. فوعظهم المسيح عن سنة الله في خلقه وعن الحب الذي ألقاه على الأرض بين الناس مما جعل الناس جميعاً أسرة واحدة. وقال لهم إن ما يفعلونه في الحياة الدنيا سيلقونه في الحياة الأخرى ومن الجملة ما يفعلونه بالحيوانات وهي مثلهم من مخلوقات الله. ثم اعترف العاصي بذنبه وتاب عنه، ثم مسح المسيح على يد العاصي المشلولة فعادت إلى صحتها وضج الناس بالتسبيح والتمجيد لله.

وفي مكان آخر من ذلك الإنجيل قصة عن المسيح مفادها أن المسيح دخل قرية فرأى قطة مهجورة ليس لها من يرعاها وكانت جائعة، فحملها المسيح ووضعها طيّ ثوبه فسكنت، ثم أتى لها بطعام وماء فأكلت وشربت، ثم عهد بها إلى تلميذة من تلاميذه وكانت أرملة اسمها لورنزا Lorenza فأخذتها واعتنت بها، فقال الناس عن المسيح هذا الرجل يعنى بجميع المخلوقات كأنها إخوته وأخواته ويحبها كما يحبهم. وقال لهم: الحق أن المخلوقات إخوانكم في أسرة الرب العظمى، وأنها اخوتكم وأخواتكم.

هـذا ما جـاء في ذلك الإنجيـل عن المسيح والقط. وجـاء أيضاً في مراجع أخرى ذكر للعذراء مع القط ولا مجال للكلام عن ذلك الآن.

* * *

ممـا اشتهرت بـه قبائـل الكلت في الشمال الغـربي من أوروبـا أنهـا كانت تعتبر شهر أيار من كل سنة شهراً حراماً وكان أولـه مخصصاً لمـراسم تقديسية لها كانت الساحرات لها المقام الأول فيه وكانت هذه تقدم القرابين على شكل حيوانـات يجري حـرقها في مـوسم عام وكـان القط في مقدمـة تلك الحيـوانات المحـروقة. وذلـك الموسَم كـان يقام على ظهـور الجبال وكانت الساحرات يأتين إليه طائرات على متون القـطاط. وكان يجـري في موسم من هذا النوع في فرنسا في يوم يقال له عيـد القديس يـوحنا، وكـان يؤتى بالقطاط في سـلال وأقفاص إلى ذلـك العيد ويحضـر الاحتفال وجـوه المحلة ورئيس البلدية وكبار القـوم مع النـاس عامـة ويجري حـرق القطاط علناً في منظر تقشعر منه الأبدان. وقد تحدثنا عن ذلـك أو مثله في مناسبـة سابقة في موضع آخر من هذا الكتاب.

ومن المواسم التي كانت مشهورة في أوروبا مـوسم للساحـرات كان يقال له موسم السَّبّات Sabbat ويجتمـع فيه أعـداد من الساحـرات وتجري فيه حوادث للقطط فيها نصيب كبيـر. والقط رمز للقمـر ورمز لهـذا الموسم بصورة عامة حتى إن الساحرات قبل حضورهن إلى الموسم كن يرتدين من الأقنعة والألبسة ما يجعل كل واحدة منهن تـظهر بمـظهر القط. ولمـا قامت الكنيسـة في أوروبا وجعلت للشيـطان مقامـاً عاليـاً بأن جعلتـه سيد الـدنيا واعتبرت الساحرات بأنها زبانيته فإن رئيس الموسم في تلك المواسم كانت تعتبـره بأنـه الشيطان وتعتبـر مساعـديـه الاثني عشـر بـأنهم شيـاطين مثله. غضبت الكنيسـة على أصحـاب تلك المـواسم وشنت حملة شعـواء على السـاحرات زمـاناً طـويلاً وعـاقبتهن بالقتـل والحـرق والتعـذيب والتفـريق، وذهبت القطاط ضحية مع الساحرات.

وانصبت النقمة على الساحرات بصورة خاصة من قبل الكنيسة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وصارت الساحرات مثالاً للشيطان ومصدراً للويلات والآفات. وكل مصيبة كانت تحل ببلد أو قوم كانت تعزى إلى الساحرات بوصفها أدوات للشيطان وكانت القطاط مع الساحرات لأنها كانت تسخّر في أعمال السحر. فالبرق والرعد كانا من صنع الساحرات وكذلك المرض والآفة في الحيوان أو النبات والفساد في اللبن أو الماء - كلها من أعمال الساحرات. وكان الظن عند الناس أن حرق الساحرات وتعذيبهن وحرق القطاط أعمال يرضى عنها الإلّه لأنها انتصار له ضد عدوه اللدود الشيطان. وفي سنة ١٤٨٩ كتب البابا انوسنت الثامن Innocent تحريضاً على الساحرات أسماه (المطرقة للساحرات) حاول فيه أن يثبت أن الساحرات أعوان الشيطان وبناته وأنهن قادرات على التجسد في أجساد الحيوانات المختلفة كما كان أبوهن الشيطان من قبل قد تجسد في جسد الحية وأغرى حواء على ارتكاب الخطيئة في الجنة. وحدث من هذا القبيل في سنة ١٥٩٦ أن الساحرات في مدينة أبردين في اسكتلندة اتهمن بأنهن قد تجسدن في أجساد القطاط. وأصدر في قريب من ذلك العهد رئيس أساقفة كنتربري أمراً ينهى فيه عن التجسد بأجساد الحيوانات وقال إن من تجسد بجسد ثور أو وعل أو حيوان وحشي أو أهلي فعليه كفارة ثلاثة أيام يقضيها في العبادة. وذكر مؤلف باسم Cotton Mather في كتابه «عجائب العالم غير المنظور» أنه جرت في سنة ١٦٩٢ محاكمة إحدى الساحرات واسمها سوزانا مارتن Susanna Martin أن هذه الساحرة أنكرت أن تكون ساحرة ودعت على رجل اتهمها بأن يختطفه الشيطان. وفي الليلة التي تلت المحاكمة جاء إلى هذا الرجل وهو نائم قط ووثب عليه في فراشه وأخذ بخناقه وكاد يخنقه. ومثل ذلك حادث آخر جرى في سنة ١٦٠٧ فإن امرأة باسم ايزوبل كريرسون Izobel Grierson حوكمت بتهمة السحر وثبتت التهمة عليها وأحرقت ونثر رمادها في الهواء. والتهمة التي وجهت إليها كانت أنها دخلت بيت رجل اسمه أدم كلارك في هيئة قط له

وكان مع القط ذلك حشد من القطاط الشرسة أخذت بالمواء والضجيج تهديداً للرجل ولامرأته وخادماته، وكان الشيطان يصاحب هذه القطاط، وهو في شكل رجل زنجي، فأمسك بالخادمة من شعرها وجرها على الأرض صاعداً ونازلاً. واتهمت ايزوبل هذه أيضاً بأنها كانت تزور رجلاً اسمه براون Brown في شكل قطة، وكانت هذه القطة سبب موت ذلك الرجل بعد قليل. وفي محاكمة جرت سنة ١٦١٦ لامرأة اسمها جونت ايرفنك Jonet Irving أن الشيطان كان يبرز في شكل امرأة وكان يهرب عند ذكر اسم المسيح مختفياً في شكل قط أسود، ومن جملة ما اتهمت به هذه المرأة في محاكمة أخرى جرت سنة ١٦٢٩ أنها آوت في بيتها ساحرة باسم كريستيان كرنتون Christian Grinton وأن زوج المرأة رأى هذه الساحرة تتسلل من البيت في هيئة قطة وأن هذه القطة هي السبب في موت رب البيت، فإنه وجد ميتاً بعد ذلك.

وفي محاكمة لساحرة اسكتلندية اسمها ايزوبل كاودي Isobel Gowdie كانت تعرف بملكة الساحرات جرت سنة ١٦٦٢، ذكرت تلك الساحرة أن الساحرات في أبردين مؤلفة من عدة جماعات، ولكل جماعة آمرتان إحداهما تسمى بعذراء الجماعة وكانت تكون فتاة أو امرأة جميلة، وذكرت أنها في إحدى المناسبات في سنة ١٦٥٩ تنكرت هي وصاحباتها في أشكال قطاط وغربان وأرانب وخرجن جميعاً إلى الريف يسرحن ويمرحن ويعبثن ودخلن مصبغة لرجل هناك ولعبن بالصباغ حتى صار الصباغ في لون أسود كلون الشيطان. وذكرت كيف أنها كانت تنقلب إلى قطة ثم تعود امرأة متى شاءت.

وساحرة أخرى اسمها ماري لامنت Marie Lamont كانت تتخذ شكل قطة. وذكرت هذه الساحرة عن اجتماع سحري جرى في سنة ١٦٦٢ أن الشيطان كان يكون في ذلك الاجتماع في صورة كلب أسمر، وكان الغرض من ذلك الاجتماع إثارة العواصف، وأنها كانت وعدد من

صاحباتها يتنكرن في صورة قطاط، وأنهن في ليلة من الليالي أكلن من سمكة في أحد البيوت، وجاء صاحب البيوت وأكل من تلك السمكة فأصيب بمرض ومات. وقالت إن الشيطان كان يحضر اجتماعات الساحرات في شكل زنجي، وكان الشيطان يحيلهن إلى قطاط بحركة يجريها بيديه فوق رؤوسهن.

وفي حكاية عن الساحرات في اسكتلندة أن تاجراً اسمه ويليم مونتكومري William Montgomerie قدم معروضاً إلى رئيس الأمن في بلدته يشكو فيه من أن بيته كان مسرحاً لأعداد من القطاط حتى أصبح من المتعذر عليه وعلى أفراد أسرته الإقامة فيه، وذكر أن خادمته قالت إن القطاط كانت تتحدث فيما بينها، وأن الزوجة هددت بترك البيت نهائياً، وأن أحد الخدم هرب من البيت قبل انتهاء مدة عمله، ثم إن ذلك التاجر ضاق ذرعاً بهذه الحالة فأخذ سيفاً وفأساً وحربة وقتل اثنين من القطاط وبتر رجل قط ثالث وجرح عدداً آخر في أثناء الهروب. وبعد أيام قليلة ماتت في البلدة ساحرة مشهورة في البلدة موتاً مفاجئاً وألقت ساحرة أخرى بنفسها في البحر من فوق صخرة وغرقت وماتت، وشوهدت امرأة أخرى تسقط عند باب بيتها برجل واحدة وقد سقطت رجلها الأخرى. وتبين أن تلك النساء هن القطاط التي أصابها الرجل التاجر. وأمر رئيس الأمن بسجن المرأة التي فقدت رجلها، ولما سئلت تلك المرأة عن سبب فقدانها لرجلها فأقرّت بأنها كانت فعلاً في بيت التاجر وأنه فعلاً ضربها على رجلها وكسرها وأنها كانت في هيئة قطة. وماتت تلك المرأة بعد أيام قليلة في السجن.

وفي حكاية اسكتلندية أخرى كتب عنها رجل اسمه برت Burt نقلاً عن أحد رجال الكنيسة في سنة ١٧٣١ ومفادها أن أحد النبلاء هناك رأى أن مخزونه من النبيذ كان يتناقص تدريجاً وظن أن السر في ذلك أن العمل من عمل الساحرات. فتسلح وذهب إلى القبو الذي فيه النبيذ ولما دخل

أحاطت به القطاط من كل جانب، فأخذ يضربها بما لديه من السلاح فتهاربت القطاط وخلا المكان منها، ووجد بعد فحص أرض المكان قطرات من الدم فعلم أنه أصاب إحدى القطاط. وفي اليوم التالي دخل بعضهم بيت امرأة كانت تعرف بأنها ساحرة فوجدها في الفراش ووجد أنها مصابة بجرح بليغ في رجلها.

وذكر بودان Bodin وهو محام وكاتب سياسي في القرن السادس عشر أن محاكمة جرت للساحرات في مدينة في فرنسا سنة ١٥٦٦ وورد فيها أن الساحرات كن يعقدن اجتماعاتهن السحرية في قلعة خربة هناك وكلهن في أشكال القطاط. وتشجع أربعة رجال وجرأوا على أن يقضوا ليلة في تلك القلعة. فلما استقروا في القلعة تصدى لهم حشد لا يعد من القطاط وقتل أحد الرجال الأربعة وأصيب الآخرون بأضرار، ولكن الرجال لم يتركوا القطاط تنجو من غير أذى فقد أوقعوا فيها إصابات. ولما أصبح الصباح في اليوم التالي ظهر أن عدداً من نساء المدينة كن مصابات بجروح بالغة.

وجاء في حديث رواه بوكويه Boguet أن عاملاً في ستراسبورغ هاجمه ثلاث قطاط ضخام وفي دفاعه عن نفسه أوقع فيها جراحاً. وبعد ساعة ألقي القبض عليه واتهم بأنه أساء المعاملة مع ثلاث سيدات كريمات في المدينة فاستغرب أشد الاستغرب لهذه التهمة ونفاها نفياً قاطعاً وقال إنه كان قد هوجم من ثلاث قطاط لا غير. وأبدى للمحكمة ما يثبت قوله. ولكن لما أجري الفحص الطبي على السيدات الثلاث تبين أن كل واحدة منهن مصابة بجرح، وهذا الجرح هو الذي أوقعه العامل في كل من القطاط الثلاث.

وهذا شبيه بحكاية أوردها ماير Meier عن شابة في سوابيا من الغرب الجنوبي لألمانيا وجندي كان خطيباً للشابة. وكان الخطيب هذا يزور خطيبته الشابة في أيام عطلته. وفي زيارة منه لها قالت له أن لا يزورها في

الليلة القادمة لأن الزيارة ليست في مصلحتها. فاستغرب الجندي من ذلك وساورته الريبة، ولكنه صمم على زيارتها في تلك الليلة رغم نهي خطيبته عن ذلك. فأتى إلى البيت وهرعت إليه قطة بيضاء رافقته من الشارع ولازمته ملازمة شديدة ولم تنفض عنه بالانتهار والزجر، وهذا ما أغضب الجندي فاستل سيفه وأهوى به على القطة فبتر قدمها، ثم مضى في سيره، ودخل بيت خطيبته فألفاها في الفراش، وتساءل عن ذلك فأجيب بأجوبة مبهمة مشوشة، ولما كشف غطاء الفراش وجد أن أحد قدمي خطيبته مبتور والدم يتصبب من جسمها، فصاح بها وقال: إذاً هذا هو الذي أصابك أيتها الساحرة. وخرج وبعد ثلاثة أيام ماتت الخطيبة.

وفي حكاية ذكرها الكاهن وبستر Webster في معرض الكلام عن الساحرات وعن أنها تظهر بمظهر القطاط ولا سيما السود منها أن رجلاً عرف أن قطاً أسود كان يسحر أبقاره فأتاه وضربه بمدية له فقطع إحدى أذنيه. ولما أصبح وجد أذن امرأة وفيها قرطها، فأخذها ووضعها في معرض هناك لا تزال فيه.

إلى غير ذلك من الحكايات.

* * *

ولعلّ الحكايات عن الفرق الباطنية وعبادة القطاط فيها من دواعي الاستغراب ما لا يقل عن ذلك. ونعود بالذكر هنا إلى جمعية الداوية المعروفة بجمعية الفرسان الهيكليين. فإن هذه الجمعية نشأت ونمت وتعاظم شأنها حتى صارت في مدة قرن كامل أعظم مؤسسة أوروبية تأثيراً من الناحية السياسية ثم أخنى عليها الزمان وتقوضت أركانها وتلاشت بصورة متسارعة في عهد الملك فيليب ملك فرنسا (١٢٨٥ ـ ١٣١٤) فقد اضطهد هذا الملك تلك الجمعية ونسب إليها الهرطقة وجرائم فاحشة. وفي ١٣ تشرين الأول من سنة ١٣٠٧ أصدر هذا الملك أمراً بالقبض على جميع أعضاء الجمعية في فرنسا وأوقع فيهم صنوفاً من التعذيب لحملهم

على الإقـرار بمسـاوئهم. والتهم التي وجهت إلى الجمعيـة تتلخص في تهمتين رئيسيتين وهما:

١ ـ أن أعضاء الجمعية يجحدون بالله وبالمسيح.

٢ ـ أنهم يعبـدون الشيطان ويـزاولـون أعمـال السحـر. ونسبـوا إلى الجمعية أن الشيطان نفسه كان يترأس كل اجتماع لها وكـان يظهـر بمظهـر قط أسود، بالإضافة إلى أنه كان يجري في الاجتماعات تقديم الأطفال من بنين وبنـات قـرابين للشيـطان. وثبتت هـذه التهم ضـد الجمعيـة وإقـرار أعضائها بعـد التعذيب. ولم ينكـر عضو من أعضـائها في جلسـات محاكم التفتيش في بـاريس في أواخـر سنـة ١٣٠٧ أنهم كـانـوا يمتهنـون الصليب ويقومون بفواحش مخزية. وبعضهم يعتبر هـذه التهم بأنهـا باطلة، غيـر أن الواقع هو أن جمعية الفرسان الهيكليـين كانت جمعية سرية لها ديانـة تدين بها هي من قبيل عقيـدة البوغـوميليـين Bogomilians وهذه العقيـدة متصلة اتصـالاً وثيقاً بعبـادة الشيطان، وأفـراد هذه الفـرقة الـدينية تؤمن بـإله فـوق الجميع وبأن له ابن بكر يقال له شيطانيل وهـو معبود اليهـود يهوه وأن هـذا الابن هو الذي خلق العالم بعد أن عاق أبـاه. وأن الابن الصغير لإلـه هذه الفرقة وهو المسيح هو الإنسان الذي ندب نفسه عدواً لأخيه الأكبر. وأفـراد هذه الفرقة لا تقدس الصليب لأنهم يـرون أنه رمـز لآلام المسيح. والفـرقة الدينية المماثلة المعروفة بفرقـة إبليس تعبد الابن الأكبـر لذلـك الإله وهـو شيـطانيل وتقـدس القط الأسـود على أسـاس أنـه رمـز لإبليس وتعبـده في اجتماعاتها السريـة حيث يجري ذبـح الأطفال واستعمـال دمائهم في صنـع الخبز الذي كـان أعضاء هـذه الفرقـة يأكلونـه في العشاء الـرباني الخـاص بهم.

وقيـل إن هذه الفـرق الدينيـة أشبه مـا تكون بفـرق دينية أخـرى من جملتهـا فرقـة الأدريـين Gnostics وفرقـة المانـوية وهمـا تعبـدان الشيـطان المتمثل في شكل قط أسود. وماني زعيم المانويـة رجل فـارسي له كتـاب

مقدس أعلنه سنة ٢٤٢ ميلادية، وهو قائم على مبدأ الثنوية، وفيه أن إلّه اليهود يهوه وزير أهرمان وهو إلّه الشر، وأن الجنس البشري من خلق الشيطان، وأن المسيح مقيم في الشمس بأمر أهرمان ـ إلى غير ذلك من المعتقدات الضالّة. والمانوية لاقت من الاضطهاد والتعذيب ما لاقته جمعية الفرسان الهيكليين، وقيل إن المانوية كان لهم اجتماعات سرية في بيت لهم ينشدون فيه أناشيدهم الخاصة، وكان الشيطان يحضر هذه الاجتماعات في شكل قط، وكان إذا حضر أطفئت الأنوار واختلط الرجال بالنساء وأطلق الجميع لشهواتهم العنان. وقيل عنهم إنه إذا وُلِد وَلَد لأحد من المانوية في ظروف دينية خاصة فإن هذا الولد كان يحرق وكان رماده يستعمل في صلواتهم.

ثم قيل إن ماني زعيم المانوية صلب سنة ٧/٢٧٦ أو أنه سلخ حيًا وألقي بجثته إلى الكلاب فأكلتها. وكان المانوية ينسبون إلى السحر والساحرات وأنهم عبدة الشيطان، وأن الشيطان كان يترأس اجتماعاتهم وهو في شكل قط أسود وأنهم كانوا يقبلون دبر الشيطان تحت ذنبه. وانتشر مذهب المانوية في جنوب فرنسا عند الألبيين Albigenses والولديين Waldensians، وأعلن البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢٠٨) حملة صليبية ضد هؤلاء وأوقع فيهم مذبحة شنيعة لا يستطيع إنسان أن يصف بشاعتها ووحشيتها، إذ كان الأطفال يختطفون من أحضان أمهاتهم ويمزقون إرباً إرباً أو يرمى بهم على الصخور والجدران فتتحطم جماجمهم، وكان المرضى والمسنون يقتلون حرقاً في بيوتهم. وكان الناس يسلخون أحياء أو تشوى أجسادهم على النار أو تبقر بطونهم وتندلق أحشاءهم من أجسامهم أو كانوا يربطون بالأشجار وتنزع قلوبهم من صدورهم أو كانوا يمثل بهم وتلقى أجسادهم في كل مكان، بل إن رجال الحملة الصليبية كانوا يأخذون أدمغة ضحاياهم فيسلقونها ثم يأكلونها، وكان أشقياء الحظ من هؤلاء يدفنون أحياء، وكان الآباء يسيرون إلى القتل وحول أعناقهم رؤوس

أولادهم وأطفالهم. وكتب ليجر Leger عن ذلك يقول: «إن يدي ترتجف ولا تستطيع إمساك القلم ودموعي تنهال وتختلط بالحبر وأنا أكتب عن هذه الأفعال الشنيعة التي صدرت عن أبناء الظلام، وهي أفعال أسود من أفعال الشيطان أمير الظلام نفسه». وكتب الشاعر الإنكليزي ووردسورث Woordsworth في قصيدة له استنكاراً لهذه الأفعال الدالة على التعصب المسيحي الجامح.

وثمة فِرَق دينية أخرى منها فرقة إيطالية في ميلان باسم الباتريني Paturini فقد جاء عن هذه الفرقة أن أفرادها كانوا يقيمون احتفالات لهم في منتصف الليل تشبه اجتماعات الساحرات وكان القطاط والماعزات تحضر هذه الاحتفالات. وكان المحتفلون ينشدون الأناشيد ويفعلون في خلواتهم ما هو خارج عن الأدب واللياقة إلى أن ينزل على المحتفلين قط أسود ونزوله بينهم إشارة إلى الموجودين بأن يبدأوا وهم في الظلام ما شاءوا من أعمال الفحش والفجور كما كان يجري عند المانويين.

وكان القط يُضحى به كالقربان يقدم إلى الآلهة أو الإله، كما هو المتبع قديماً في مختلف العبادات والديانات. والقط بحكم ما اتصف به من شدة الرؤية في الظلام وما نسب إليه من رؤية الأشياء التي لا يراها الإنسان صار ينظر إليه بأنه خير قربان لآلهة الظلام والآلهة الباطنية، والتضحية بالقط كانت تعتبر بأنها خير وسيلة للاتصال بتلك الآلهة والتقرب إليها، وكان يرجى منها أن تنعم على مقدمي القربان بالرؤية الثانية وهي الرؤية في الظلام التي هي من صفات القط. ويقال إن تلك الآلهة تحب القط لأنه رمز لها، والمعتقد أن تلك الآلهة تحب التضحية بالقط، حتى إنها تحب تعذيب القط لأنها لا ترضى بالكشف عن الأسرار الباطنية إلا إذا عذّب القط وتعذيبه يثير فيها الشفقة عليه فتذعن لمطالب المعذّبين. والاعتقاد السائد في كثير من الديانات الباطنية أن إبليس اغتصب عديداً من القوى من الآلهة واختص بها وأن القط رمز لإبليس، فكيف لا يجبر إبليس

على إماطة السر عن تلك القوى عن طريق تقديم القط قرباناً له أو عن طريق التضحية به؟! حتى إن القط الذي كان ممثلاً لإلَـه الشمس هورس عند المصريين أخذته الكنيسة وجعلته من جملة الرموز السرية وقالت بأن المسيح هو إلَـه الشمس حلت به روح هورس، وكان في إقليم بروفنس Provence في جنوب فرنسا حتى حول سنة ١٧٥٧ احتفال كان القط فيه قطب الرحى، وكان يؤتى بأحسن قط ذكر إلى هذا الاحتفال وكان القط يقمّط ويلفف كالطفل في مهده ويعرض على الحاضرين لتقديسه، وكانت تفرش له الزهور في طريقه إلى المعبد. وعند اجتياز الشمس خط الزوال في ٢٤ حزيران من كل سنة كان القط يوضع في سلة ويلقى به في نار عظيمة كانت تشعل في ميدان في المدينة، وكان يحضر العملية رجال الكنيسة من أساقفة وكهان وكانوا ينشدون الأناشيد تكريماً للمناسبة ثم يقيمون موكباً دينياً بعد ذلك. وشبيه بذلك ما كان يجري في إحدى المقاطعات في إنكلترا.

وأكثر هذه الاحتفالات القربانية كانت تجري في منتصف الليل حين يكون الظلام على أشده، وكان القط في هذه الاحتفالات يكون أسود. وكان يؤتى إلى هذه الاحتفالات بالقطط السود فيؤخذ قط أسود ويشك في سفود ويدفع بالقط في النار حتى إذا احترق جيء بقط آخر وشك في سفود وأحرق كما أحرق القط السابق وهكذا إلى أن ينتهي الاحتفال الذي كان يدوم أربعة أيام بلياليها. وقبل انتهاء الاحتفال كانت تظهر للمحتفلين الأرواح الجهنمية على هيئة قطاط سود تأخذ بالمواء فيختلط مواؤها بصريخ القطاط التي كانت تشوى في النار على السفافيد. ثم يظهر قط شرس ضخم، ويقوم المشرف على عملية الإحراق بالتقدم بمطالبه إلى الأرواح، وأهمها أن يوهب له ثواباً على عمله الرؤية الثانية وهي قوة الإبصار في الليل. وكانت الأرواح الجهنمية تظهر ـ كما قلنا ـ في هيئة قطاط سود، وكان القط الشرس الضخم يظهر لإنذار القائم بعملية الإحراق بالكف عن

فعلته، فإذا خاف وكف عن الإحراق بطلت العملية كلها، ولهذا فإنه كان يثابر إلى النهاية، وفي نهاية اليوم الرابع كان يظهر على سقف المكان من الداخل قط يصرخ بصوت شديد تتردد أمواجه في أرجاء المقاطعة كلها.

* * *

وفي كتاب كتبه بروك H.C. Brooke عن القطاط أن امرأة من مقاطعة بريطانية في شمال فرنسا اسمها آن Anne كانت (في سنة ١٧٨٧) تحب قطتين لها ولها محب من عامة الناس اسمه جان لوي Jean Louis ينافسه في حبها شاب آخر اسمه الكونت آلان Alain، وكان هذا المنافس من أسرة نبيلة والآخر جان لوي ابن سمَّاك، وهذا لا يرضى به النبيل وقطع عهداً على نفسه أن ينتقم من منافسه العامي. واتفق أن أقبل موعد المهرجان الديني الذي كان يقام كل سنة في يوم الأحد فأعدت آن نفسها للقاء بحبيبها جان لوي، ولكن الكونت آلان كان مترقباً لحركات منافسه فلما كان جان لوي في طريقه متوجهاً للقاء محبوبته داهمه رجال الكونت آلان وألقوا القبض عليه وألقوه في السجن. وكانت آن على وشك الرضوخ لرغبات الكونت آلان ومشيئته إنقاذاً لحبيبها جان لوي، غير أن عدداً من السحرة في ذلك المكان نصحوها بأن تحبس قطتيها بين جدارين تبنيهما عليهما لأن ذلك يضمن إفلات جان لوي من السجن. وشقّ على آن أن تفعل هذا الفعل المنكر بقطتيها المحبوبتين، ولكن لم يكن لها خيار في ذلك ففعلت بقطتيها ما قال السحرة به وكانت آن قبل أيام أنقذت من الغرق شابة اسمها إيفون. وفي الليلة من ذلك اليوم الذي دفنت فيه القطتان كانت إيفون تتجول قرب قصر الكونت آلان وكان معها كلب أبيها إذ رأت الكلب يختفي في كومة من حطام الشجر وتحت الحطام ثقب غائر في الأرض. فأقدمت إيفون تريد معرفة جلية الخبر فرأت درجاً نازلاً في الأرض يؤدي إلى أحد سراديب القلعة. فأسرعت إيفون وأخبرت آن بذلك، وفي الليل جاءتا ونزلتا الدرج فإذا هما في سرداب القلعة فسارا فيه

وفجأة عثرتا على جان لوي سجيناً هناك فأخرجتاه وصعدتا به، وبقي متنكراً في زي متسول. واتفق أنه كان يصطاد سمكاً على شاطىء البحر فرأى الكونت آلان يغوص في غوارة من الرمل، فحاول إنقاذه ولكن الكونت كان قد غاص ومات. . ثم خلع جان لوي ثياب التنكر وتزوج بآن. ولولا تضحية آن بقطتيها لما نجا جان لوي ـ على حد اعتقاد الناس هناك.

* * *

وقالوا عن القطاط وعلاقتها بتناسخ الأرواح، وتساءلوا عن القطاط هل لها مثل الإنسان أرواح وهل تحشر هذه الأرواح يوم القيامة كما تحشر أرواح البشر؟ ومعظم البشر كان لهم رأي مجمعون عليه وهو أن روح الإنسان تمر في أطوار متعددة بدأت بالطور الغازي ثم بالمعدني ثم بالنباتي ثم بالحيواني وانتهت بالطور البشري. وذكر هيرودوتس أن قدماء المصريين كانوا أول من أخذ بهذا الرأي وذكروا أن تلك الدورة التطورية تستغرق حتى تتم ثلاثة آلاف سنة. وكان قدماء المصريين يؤمنون بتناسخ الأرواح ويؤمنون بأن الروح قد يعتريها المسخ فتدخل في عالم الحيوانات، وقد تعود إلى عالم الإنسان، ولهذا فإنهم كانوا يمتنعون عن الإساءة إلى الحيوانات ولا يقدمون على تعذيبها لأنها أقوام مثلهم.

وفكرة تناسخ الأرواح موجودة عند الهنود والبوذيين وعند من تابعهم من الفرق الدينية الباطنية، والهنود يحاذرون قتل أحد من الحيوانات اعتقاداً منهم بأن هذا الحيوان قد يكون قريباً من أقاربهم. وكتب الجنرال غوردون Gordon عن حكاية هندية ذكر فيها أن قطة كانت تضم في جسمها روح رجل مات، وذلك أن حاكم بمباي البريطاني مات سنة ١٨٣٨ وأنه في الليلة التي مات فيها شوهدت قطة تخرج من بيته وتسير ذاهبة جائية في ممر كان الحاكم من عادته أن يسير فيه، والهنود يعتقدون بأن تلك القطة فيها روح ذلك الحاكم البريطاني.

والاعتقاد بأن القطة تكون فيها روح بشرية موجودة أيضاً عند شعبي

برما وسيام، وهذا ما يبعث البرميين والسياميين على احترام القطاط وإدخالها مع المصلين في معابدهم، وكان السياميون إذا مات لهم ملك يدفنون معه قطته أو قطه معه، وكانوا يتركون في القبر فتحة، فإذا خرج القط (أو القطة) من تلك الفتحة بعد الدفن قالوا إن روح الملك قد تقمصت في ذلك القط فكانوا يأخذون ذلك القط إلى معابدهم. وقطاط المعابد في سيام تكون سوداً ولها أعين بلون ذهبي، وتوضع في أقفاص ذهبية كان البخور يحرق حولها وكانت تعطى من الأطعمة أطيبها. وشبيه بقطة البرميين المقدسة قطة سيام المقدسة. وعين القط اللامعة السريعة التغير سبب لتقديسه، وكانت تلك العين تعتبر بأنها صورة عن الشمس، وذكر المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن القط كان يقدس عند المصريين في معبد هليوبوليس لأن إنسان عين القط كان في اتساعه وضيقه يكون بحسب ارتفاع الشمس عن الأفق وانخفاضها عنه كما سبق أن ذكرنا.

* * *

كان المصريون القدماء إذا بنوا معبداً لإله الشمس، يضعون في موضع بارز من المعبد صورة للقط، وكانوا يرون أن الصورة تشمل في هيكلها أو جوفها روحاً لها فاعليتها وشوكتها، وفي ذلك أحاديث مختلفة، منها حديث رواه مراسل الديلي أكسبرس اللندنية من القاهرة في عدد هذه الجريدة الصادر في ١٩١٩/٨/٢٤ تحت عنوان «معبد القط في الكرنك». وصاحب الحديث جندي استرالي اسمه ولْيم نرلي William Nerly، فإن هذا الجندي كان قد أصيب بضرر بليغ في حرب الدردنيل سنة ١٩١٥ فصار مقعداً وبعث به إلى القاهرة للنقاهة، ومعه في حديثه بنت يونانية. ويبدأ هذا الحديث بهذا الجندي حين كان في أحد مستشفيات الإسكندرية. فقد سمح له في يوم من الأيام أن يخرج من المستشفى. فاستأجر عربة وجال في أنحاء المدينة. وبينما كان يمر في شارع وضيع من شوارع المدينة إذ رأى بنتاً يونانية جميلة سرعان ما وقع في حبها. فأمر

الجندي سائق العربة بالوقوف، ولكن السائق على ما يظهر إمّا أنه لم يسمع وإما أنه رفض الوقوف، واستمر في السير مسافة قبل أن يقف نهائيا. واضطر الجندي إلى أن يرجع للبحث عن البنت اليونانية. وبحث عنها طويلاً ولكنه لم يعثر لها على أثر. فعاد إلى المستشفى، وبعد أيام سافر إلى بلده أوستراليا. ولكن صورة تلك البنت اليونانية لم تفارقه وظلت ذكراها تعاوده ولا تفارقه. وعاد إلى مصر بعد مدة وهو يرجو أن يعثر على تلك البنت. وحاول العثور عليها مراراً ولكن من غير جدوى. ثم قرر زيارة أسوان والأقصر لمشاهدة آثارهما في آخر مرحلة من زيارته لمصر وبينما كان في الأقصر زار معبد الكرنك فأعجب بآثار المعبد، وعزم على البقاء هناك مدة أخرى بدلاً من العودة فوراً إلى الإسكندرية. ورأى وهو في المعبد ناووساً فيه مومياء وفوق الناووس صورة قطة. فأخذ يتمعن في صورة تلك القطة فأحس بأنها أخذت تحيا تدريجياً، ثم شعر بشيء يحتك برجله فنظر وإذا بالقطة التي كانت على الناووس صارت قطة حية ونزلت وأخذت تحتك به، ثم سارت عنه فتبعها إلى الشارع وراء المعبد، ووقفت القطة عند باب أحد الفنادق، ونظرت إلى الجندي ثم انزلقت إلى داخل الفندق، فتبعها وإذا به بالبنت اليونانية التي كان يبحث عنها.

وفي حديث آخر ذكره آرثر ويكال Arthur Weigall وهو من المشهورين بكتاباتهم عن الفراعنة، أن اللورد كرنار فون كان في سنة ١٩٠٩ يعمل في حفريات في مدافن العظماء في طيبة Thebes وأنه في أثناء ذلك عثر على صورة خشبية جوفاء لقط أسود كبير وتبين أن الصورة هي غلاف للقط كان قد حُنط فيه. والصورة تظهر قطاً أشبه ما يكون بالببر الصغير، وله عينان براقتان بلون أصفر وشعر أصفر منتصب حول فمه. ونقلت هذه الصورة عبر نهر النيل ثم حملت إلى بيت ويكال ووضعت في غرفة نومه. ولما عاد ويكال في المساء إلى بيته في منتصف الليل ووجد الصورة في وسط أرض الغرفة وحالت بينه وبين أعواد الثقاب. فضرب

الجرس يطلب خادماً، فلم يجب أحد. فذهب إلى المطبخ ووجد الخدم ملتفين حول الساقي يريدون معالجته من لدغة لدغته بها عقرب، وكان يتضور من الألم. وفي لحظة أخذ يهذو ويقول إنه مطارد من قط كبير رمادي اللون، وهذا لم يكن مستغرباً لأنه كان من جملة من حمل صورة القط ووضعها في غرفة النوم. ثم أوى ويكال إلى فراشه، وكان نور القمر يضيء صورة القط، وظل ويكال ينظر إلى الصورة وهي تنظر إلى جدار الغرفة من خلفه. وقدّر ويكال عمر الصورة بأنه أكثر بكثير من ثلاثة آلاف سنة، وأخذ يعجب من أولئك الناس الذين أتعبوا أنفسهم في صنع ذلك الغلاف لمومياء قط. وكان في ذلك الوقت خارج الشباك شجرة، وتحرك بحركة الهواء غصن من أغصانها وألقى ظله على صورة القط في وسط الغرفة والظل يرقص تبعاً لحركة الغصن وعينا القط تفتحان وتغمضان بحسب رقصات الظل. ولما دنا ويكال من الإغفاء رأى أن الصورة التفتت تنظر إليه، ورأى بصيصاً في العينين. ثم أغفى، وما كاد يغطس في النوم حتى سمع صوت طلق يشبه الطلق الناري من مسدس، فانتبه مذعوراً وإذا بقط كبير رمادي اللون يقفز على الفراش ويغرز مخالبه في يده ثم يهرب من الشباك، ورأى في الوقت نفسه أن الصورة قد انشطرت نصفين وكل نصف كان يترجرج على الأرض. وأدرك ويكال أن النصفين كانا غلافاً لقط محنط، فكأن القط المحنّط قد خرج من غلافه ثم هرب من الشباك. فقفز ويكال من الفراش، وأخذ ينظر من الشباك، ثم حانت منه التفاتة إلى ممر في الجنينة فرأى قطه بلونه الزيتوني المخطط ولم ير القط الكبير الرمادي. فهل في استطاعة القارىء أن يعلل ذلك؟!

وثمة حديث ثالث كتب عنه أديب ألماني معروف اسمه كرنر Kerner قال فيه إن الكونت ألكسندر Alexander أرسل إلى أبي كرنر صورة لها إطار عادي أسود، وكانت الصورة لقط بري مرسومة بالطباشير الأسود على ورق أزرق وكانت عينا القط في الصورة زرقاوين بمثل زرقة

الورق، والصورة جميعها بالحجم الطبيعي. ومن الغرائب في هذه الصورة أن الناظر إليها كلما أدام النظر كان يرى أن الحياة تدب فيها وكان يرى العينين تظهران بمنظر غضوب شرس مما يبعث في نفس الناظر دبيباً يقشعر بدنه منه. وكان الكونت قد بعث مع الصورة برسالة قال فيها: «أرسل إليك هذه الصورة وهي مصورة بعناية عظيمة بحيث إنني أحجم عن إحراقها، ولكني لا أستطيع الاحتفاظ بها لأن ذلك قد يدخل اختلالاً في عقلي. فقد نظرت إليها يوماً وهي معلقة على الجدار في غرفة حارس الأحراش أحد الموظفين عندي. وكان هذا الحارس رجلاً سعيداً في حياته الزوجية، ولكن قبل شهرين أطلق النار على نفسه ومات ولم يعرف سبب لذلك. وبعد موت الحارس اشتريت الصورة من أرملته وعلقتها على الجدار في غرفتي، ولكني كنت أشعر كلما نظرت إلى صورة ذلك القط أنني لا أطيق النظر إلى عينيه، فإن تينك العينين كانتا تجتلبان انتباهي رغماً عني وتبعثان في نفسي شعوراً سوداوياً شديداً يجعلني أرى أن مصيري سيكون كمصير حارس الأحراش ما لم أتخلص من تلك الصورة. فأنا لذلك أرسلها إليك علماً مني بأن لك سيطرة على الأرواح، ولا أرى أن عملي هذا مع وجود ذلك الوضع السحري لهذه الصورة سيصيبك بأذى».

وبعد قليل مات الكونت ألسكندر، وبقيت الصورة معلقة على الجدار في غرفة من بيت أبي كرنر، وكان هذا يبغض وجودها في بيته، ولكنها لما كانت آخر ذكرى من صديقه الكونت فإنه لم يرد أن يتخلص منها. ثم قرّ رأيه فأعطاها لابنه كرنر وطلب إليه أن يصرفها لأنه لم يعد يطيق وجودها عنده، وأخذها الابن وعلقها في غرفته، وظلت معلقة هناك قريباً من سنة، ولم يعرها الابن اهتماماً. وفي ليلة من ليالي الشتاء كان الابن يكتب مكتوباً في غرفته وحده، فشعر أنه لم يكن وحيداً بل كان معه هو شخص آخر كان يتسلل شيئاً فشيئاً يقترب منه، فرفع الابن نظره إلى الصورة ونظر إلى عيني القط، فأدرك في الحال أنه لن يقر له قرار مع وجود

تلك الصورة وبوجود تينك العينين بما تلقياه من الفزع الخفي في نفسه وتستنضبان كل قوة في أعصابه وتستغرق جميع أفكاره. ولم يكن الابن راغباً في الحقيقة في التخلص من تلك الصورة ولكنه أقنع نفسه آخراً وأعطاها لرجل كان مولعاً بالألعاب الرياضية وبالصيد وكان يفرش بيتاً جديداً له، فقبل الرجل الصورة شاكراً مسروراً وأخذها وعلقها في بهو البيت. وبعد ستة أشهر قتل الرجل نفسه بعد أن اعترته نوبات من السوداء، ولم يعرف السبب المباشر للقتل، وأخذ أحد أقرباء الرجل صورة القط إلى بيته، ولكن هذا وجد ميتاً في فراشه. ولم يعرف إن كان قد انتحر أو أن أحداً قتله.

* * *

والقط، حسب تلك المعتقدات، له علاقة بالأموات، ولما كان القط يمثل إله الشمس وغياب الشمس معناه الموت فإن القط الذي يتحرك ويقضي زمناً طويلاً في الليل هو رمز للأموات في ظلام القبور. وكان المصريون القدماء تقديساً منهم للقط يحنطونه، وكانوا يدفنون القطاط في مدافن خاصة بالآلاف، وقد عثر على مدفن من هذا النوع للقطاط في بني حسن في مصر، وقد نبشت موميات القطاط من هذا المدفن وفي سنة ١٨٩٠ شحن منها إلى ميناء لفربول في إنكلترا ما يقرب من ١٨٠ ألف مومياء وبيعت هناك بالمزاد العلني بسعر ثلاثة دنانير استرلينية و١٣ شلناً للطن الواحد لاستعمالها سماداً. ووجدت مدافن للقطاط المحنطة في مصر في أماكن متعددة. وذكر هيرودوتس في تاريخه أن القطاط التي كانت تموت في بوباستس كانت ترسل إلى أماكن مخصصة لتدفن فيها. وكان القط في بادىء الأمر يختار ليكون رمزاً لإله الشمس، وكان هذا الرمز مقدّساً لقط معين، ثم تعمم ذلك حتى أصبح كل قط مقدساً.

* * *

وكان المصريون القدماء في الأصل لا يؤمنون بوجود الروح وكانو

يرون أن الحياة عبارة عن نفس أو هواء يتردد في أجواف الجسم وأن هذا النفس يهمد وينقطع عن هذا التردد، وهموده وانقطاعه سبب موت الجسم. وكانوا يعتقدون أن هذا النفس أو الهواء يعود إلى الجسم إذا بقي الجسم سليماً لم يتعفن ويصير جيفة. وهذا هو السر في أنهم كانوا يحنطون الأجسام لتعود إليها الأنفاس أي الحياة كما تعود إلى جسم النائم عند استيقاظه. ومعنى ذلك أن المصريين كانوا يرون في الموت أنه انقطاع موقت عن الحياة وأن الحياة تعود إلى الجسم المائت باستجلابها إليه بالطرق السحرية. وإذا عادت الروح إلى الجسم المحنط في قبره فهي بالخيار في أن تبقى مع الجسم وإما أن تنضم إلى الإلّه أوزيريس في الجنة، وكانت أرواح القطاط تصعد بعد موتها إلى أرواح الآلهة لتكون معها. أي تذهب بعبارة أخرى إلى الجنة. ولم يقتصر هذا الاعتقاد على المصريين القدماء بل كان موجوداً عند غيرهم، كالهنود مثلاً. ومن ذلك حكاية هندية جاءت عن قط من الأرض ارتفع إلى السماء في الجنة.
والحكاية هذه عن ملك هندي اسمه سلنغام كان معه في قصره رجل برهمي ورجل آخر من الأتقياء التائبين اشتهرا بصلاحهما وحسن السيرة. وكان الاثنان في خصومة مستمرة في حضور الملك، وجرى في أثناء إحدى الخصومات أن أعلن الرجل البرهمي في يوم من الأيام أن الصلاح الذي يتحلى به هو يرضى عنه الإلّه الأكبر بارافاراستن وأنه يستطيع عندما يشاء بمعونة هذا الإلّه أن يرفع نفسه إلى السماء السابعة، وقبل الملك والرجل التقي من البرهمي هذا الادعاء وطلبا برهاناً على ذلك، وقال الملك له إنه يتعين عليه أن يصعد إلى سماء دفنديرن وأن يجلب من هناك زهرة من شجرة البريسادام وهي التي تعطي لمن يشم رائحتها الحياة الأبدية. فقبل البرهمي بذلك وقام وحيّا الملك وخرج من عنده، وكان الموجودون في بلاط الملك في ذلك الوقت يعتقدون أن البرهمي خاسر في مهمته هذه، لعلمهم بأن سماء دفنديرن تمتنع على البشر، فهي مقر ثمانية وأربعين مليون إلاهة لها من الأزواج أربعة وعشرون مليون إلّهاً،

وكبيـر هذه الآلهـة هو دفنـديـرن وزهـرة البـريسـادام هي أعـز مـا في تلك السماء. وكان الرجل التقي يعطي هذه التفصيـلات وفي نفسه سـرور كامن عن أن البـرهمي مخفق في مسعـاه لا محـالـة. ولم يكـد التقي ينتهي من حديثه للملك ولرجال البلاط حتى عاد البـرهمي وفي يده الـزهرة المقـدسة المطلوبة، فقابله الملك ورجال بلاطه بالاحترام وأقروا له بالنجاح، ورفض الرجل التقي أن يقر له بالنجاح، وقال إن سرور الملك ورجاله كان سريعـاً دون تروّ وأنه هو قادر على إرسال قطه إلى تلك السمـاء حيث يلقى ترحيبـاً فاخراً من الإلّه دفنديـرن. ثم دعا بقطه باتريباتان وأسرّ في أذنه، فطار القط واختفى بين الغيوم وظل يصعد في الفضاء حتى وصل إلى سماء دفنـديـرن فتلقاه الإلّه دفنـديـرن بالتـرحاب وأخـذه في حضنه ولاعبـه. ولكن الإلاهة المحظية لدى دفنديـرن وقعت في حب القط باتريباتان ورفضت أن تسمـح له بالخروج من السماء، وشرح القط للملك أن عدم رجوعه لسيـده يعرض سيده لخزي عظيم وصدقه الإلّه ولكن الإلاهـة رفضت أن تقبل بـذلك، ثم إن الإلّه استطاع أخيراً أن يوصي الإلاهـة بأن تقبـل بعودة القط إلى الأرض بعد بضعة قـرون من الزمـان. فانتـظر الملك سلنغام عـودة القط طول تلك القرون بلهفة شديدة، وانتظر الرجل التقي عودة قـطه، ودام الانتظار ثـلاثة قرون من غير أن يحدث ذلك الانتـظار أي تغيير في أجسـام المنتظرين من عجـز أو وهن بفضل مـا كان لـدى التقي من القوة الخـارقة. وعنـد نهـايـة القرون الثلاثة انشقت السماء بنور باهـر وظهر منهـا عرش من أزهـار شجرة البريسادام المقدسة بألف لون. وكان القط جالسـاً على ذلك العـرش وعند مثوله بين يدي الملك قدّم له غصناً كاملاً يحمل أزهار البـريسادام. فصـاح رجـال البـلاط مهللين بهـذا النصـر، وأخـذوا يهنئـون الـرجـل التقي على نجاحه. واستنكف الرجل البرهمي ولم يرض أن يقـر للرجل التقي بـالنصر لأن الإلّه دفنديـرن والإلاهة عشيـرته كـانا من محبي القـطاط، ولذلـك فإن نصف الفضـل في ذلك النجـاح يجب أن يعـزى إلى القط لا إلى الـرجـل التقي. وفكـر الملك في قول البـرهمي هذا ولـم يستـطع الجزم بـه، ولكن

الكل أجمعوا على الإعجاب بالقط باتريباتان الذي أصبح أعظم زينة يتحلى بها بلاط الملك وأصبح من أقرب المقربين إليه حتى إنه كان يتعشى كل مساء على كتف الملك.

وشبيه بهذا الإجلال الذي لقيه القط باتريباتان إجلال إحدى قبائل الملايو للقطاط عموماً فإن هذه القبيلة واسمها جاكون تعتقد أن القط يوم القيامة يكون دليل الناس إلى الفردوس ماراً بجهنم وأنه في مروره من جهنم يبرد الطريق على المارين بنفثه الماء من فمه على النيران الملتهبة وعلى أطراف المكان المستعرة.

* * *

والقطاط لها أشباح كأشباح البشر تعمر البيوت وغيرها من الأماكن كالأرواح، وأرواح القطاط كانت تظهر بعد موت القطاط، وجاء ذكر هذا الظهور مرات عديدة في أحوال مختلفة في كتب ومجلات عديدة. ففي مجلة جمعية البحث الروحاني الصادرة في شهر أيار سنة ١٩١٢ حكاية عن قط اسمه سموكي ظهرت روحه بعد موته، وكان هذا القط أزرق اللون من نوع فارسي هاجمه كلب فكسر أضلاعه وكسر رجلاً من أرجله فكان يعرج، ومات بعد ذلك ودفنه الجنيناتي وزرع على قبره شجرة. وبعد الدفن بثلاثة أسابيع جلست صاحبة القط سموكي وأختها في الجنينة تتناولان الفطور، وحانت من صاحبة القط التفاتة إلى ناحية من الجنينة فرأت القط سموكي يمشي على العشب وهو يعرج كما كان في حياته، فنهضت واتبعت القط ونادته باسمه فلم يرد عليها وتابع مشيه ثم اختفى بين الشجيرات. وبعد أيام ظهر القط ورأته الخادمة واتبعته ولكنه اختفى.

وفي حكاية ذكرها هنري سبايسر عن طبيب كان له من بين مرضاه مريض كان له قط زيتوني مخطط وكان هذا القط ملازماً لصاحبه يجلس وراءه عند انشغاله بالقراءة ويتبعه إذا نزل عن الدرج ماراً من فرجات جدار الدرج واحدة بعد الأخرى مما يدل على أنه كان قطاً مرن الجسم رشيق

الحركة. ولم ير أحد قطاً آخر يستطيع هذا النزول عن الدرج بتلك الصورة. ثم اختفى القط ولم يره صاحبه ولكن أشخاصاً كثيرين كانوا يرون القط وكانوا لا يكادون يرونه حتى يختفي كأنه شبح من الأشباح.

* * *

وفي حكاية جاءت في مجلة لايت Light الصادرة في شهر من شهور سنة ١٩١٥ ذكرها كاتب فرنسي اسمه بازانو على لسان كاهن اسمه تويدال Tweedale أن زوجة هذا الكاهن وخادمتها كانتا يوماً جالستين تتحدثان في غرفة من غرف البيت في المساء وإذا بهما تسمعان مواءً آتياً من حول مقعد الزوجة، وتسمعان أيضاً صوت قط يلعق لبناً، فأخذت الزوجة تنادي قطتها ظناً منها أن الصوت كان آتياً منها، ولكن قطتها لم تكن موجودة. ثم عادت الزوجة والخادمة إلى حديثهما، وسرعان ما عاد صوت المواء وصوت لعق اللبن، وعادت إلى البحث والتفتيش في الغرفة وكانت النتيجة كالسابقة ولم يعثر على قط أو قطة. وكانت قطة زوجة الكاهن قد اختفت قبل أيام ولم تعد إلى البيت، وكان الظن أن تلك القطة قد عادت إلى البيت عند سماع صوت المواء، ولكن القطة كانت قد قتلت بحادث ولعل شبحها هو الذي ظهر للزوجة والخادمة.

ولهذا الكاتب حكاية أخرى عن سيدة قالت إنها كانت دائماً تنفر من القطاط وتكرهها كما كان يكرهها أبوها، ولكن الفئران تكاثرت في البيت، واضطرت السيدة إلى الإتيان بقط إلى البيت، ثم تبين أن هذا القط كان فيه شيء من الجنون فتقرر أن يقضى على القط، ثم قضي عليه بالتغريق ومات. وفي مساء ذلك اليوم الذي مات فيه القط كانت السيدة جالسة في غرفة الطعام تقرأ، ثم رفعت رأسها من الكتاب لسبب من الأسباب ونظرت في اتجاه باب الغرفة فرأت الباب يفتح قليلاً ورأت ذلك القط يدخل ببطء من الباب، وهو القط نفسه الذي مات في صباح اليوم، وكان مبللاً والماء ينقط منه، وكان ينظر إلى السيدة نظرة غريبة لم تغب عن ذاكرتها، وظنت

السيـدة أن القط نجـا من الغـرق ولم يمت. فضربت السيـدة الجـرس لخادمتها، ولما حضرت قـالت لها سيـدتها: خـذي هذا القط من الغـرفة. فعجبت الخادمة من سيدتها وقالت لها: «يا سيدتي، أنا كنت حاضرة حينما شاهدت الجنينـاتي يأخـذ القط الميت ليدفنـه» ولكن السيدة عـادت فقالت للخادمة: «ألا ترين القط عند الباب!» ولكن الخادمة بالطبع لم تر قطاً عند الباب.

وفي حكاية أخرى على لسان سيدة اسمها نُورة جاء فيها أنها أصيبت يوماً بمـرض ألزمهـا الفراش في غـرفتها أسبـوعاً كـاملاً وعجبت من قـطتها المتعلقة بها أنها لم تأت لـزيارتهـا أثناء مـرضها وعللت غيـابها عنهـا بأنهـا كانت مشغولة بأولادها الصغار. وفي اليوم الأول من نقاهة السيدة كان باب الغرفة في الصباح مفتوحاً قليلاً وإذا بالقطة تدخل وتأتي إلى السيدة وتحتك بها كعادتهـا وتلحس أصابعهـا وتلاعبهـا، وفرحت السيـدة بها كثيـراً وقالت لخادمتها: «هـا هي ذي قطتي قـد زارتني أخيراً بعـد الغياب، وأعجب من انقطاعها عني طول الأسبوع». وكانت القطة في الحقيقة، قد ماتت ودفنت قبل يومين، وتركت أولادها جياعاً هزَّلاً.

* * *

وأمثال هذه الحكايات عن ظهـور القط بعد مـوته كثيـرة. وأغرب من ذلك ذكر الحـوادث عن شياطين القـطاط، أي عن أن الشيطان كـان يأخـذ شكل القط ويفعل أفـاعيله. وأصل ذلـك الاعتقاد بـأن الكون لـه حاكمـان إلٓهيـان يحكمانـه أحدهمـا الشيطان، وأن الشيـطان إن لم يكن بقـوة الإلٓـه الآخر وجبروته فإنه من المقدرة بحيث إنه يستطيع إحباط أعمال الإلٓه الآخر وتدبيراته، ونتج عن ذلك خوف وسواسي من الشيطان استحـوذ على نفوس النـاس وعمدوا في كثيـر من الأزمان والبـلاد إلى تقديس الشيـطان وعبادتـه خوفاً منـه واسترضـاء له، وبـظهور المسيحيـة اشتد هـذا الخوف واستغلتـه الكنيسة في بسط سطوتها على النفوس وعلى الأجسـام، وجعلت كل شيء

له اتصال بالشيطان سبباً كانت تتخذه ذريعة للقضاء عليه، كما أنها اعتبرت اتصال أي شخص بالشيطان عن أي سبيل أو بأية واسطة مبرراً للتعذيب والقتل. وظهرت في البلاد المسيحية أشكال من اضطهاد النساء وحرقها وقتلها بالتغريق وذلك لأن هذه النساء على زعم الكنيسة كن ساحرات يستعملن السحر للوصول إلى الشيطان والاستعانة به. وزعمت الكنيسة أن تلك النساء كن يستعملن القطاط في أغراضهن السحرية، وأن القطاط كن أدوات الساحرات بل كن يتخذن القطاط بمقام الجن وأنه كان لكل ساحرة أليف أو أكثر من أولئك الجن، وكان القرن الثالث عشر مبدأ الحملة من الكنيسة على الشيطان وأتباعه من الساحرات وعلى أتباع الساحرات من القطاط. وكثر عدد الساحرات كثرة كبيرة حتى إن العدد منهن في ألمانيا وإيطاليا فقط بلغ من الكثرة بحيث إن ما أحرق منهن زاد على ثلاثين ألف ساحرة. وذكروا عن إحدى المقاطعات في بريطانيا في سنة ١٦٤٥ أن الساحرات اللواتي كشف النقاب عنهن بلغ عددهن مبلغاً كبيراً وحوكم منهن أكثر من ثلاثين ساحرة في زمن واحد وشنق منهن أكثر من أربع عشرة ساحرة بالإضافة إلى مئة منهن أودعت في السجون. وأصبح الكشف عن الساحرات صناعة اتخذها الكثير من الناس، وقيل عن رجل ألماني اسمه شبرمكر إنه أحد أولئك الذين اتخذوا تلك الصناعة وقيل إنه كشف أكثر من خمسمئة ساحرة كان مصيرهن الإعدام. وتفاخر قاض في إحدى المقاطعات الفرنسية أنه حاكم من الساحرات تسعمئة ساحرة وحكم عليهن بالموت. ويحكى عن رئيس أساقفة تريف Treves أنه عزا قسوة الطقس في ربيع سنة ١٥٨٦ إلى تدابير الساحرات الخبيثة وأنه أحرق منهن قريباً من ١١٨ ساحرة في زمن من الأزمان. وأهم من ذلك أن ملك اسكتلندة جيمس السادس نشر كتاباً له عن الساحرات وأتباع الشيطان، وكان السبب في إيقاع العذاب أو الموت في كثير من المشيطنات وخدام إبليس وخادماته.

* * *

وفي ما كتبه أحد الكتاب في القرن السابع عشر ذكر لأمثلة من أعمال الساحرات الخبيثة، ومن جملة ذلك حكاية عن سيدة اسمها سيفنكرون كانت ضحية الساحرات اللواتي كن يتخذن من القطاط وسائط للتنكيل بتلك السيدة وبابن لها في الثامنة عشرة من عمره. وكانت هذه السيدة أرملة كاهن من رجال الكنيسة، ولما مات زوجها تزوجت من رجل آخر. وكان لها من العمر سبعاً وخمسين سنة لمّا عُلِم أن جارة لها كانت إحدى الساحرات وكانت السبب في ما كانت تعانيه السيدة من عذاب وعناء. فقد كانت تلك السيدة ترى في ساعات الليل قطاً أسود كبيراً يدخل عليها ومعه سبعة قطاط أو تسعة، وتأخذ القطاط بالمواء الشديد لمدة خمس عشرة دقيقة ثم تختفي فجأة. وما تكاد القطاط تختفي حتى يعتري السيدة آلام مبرحة في جوفها وحتى يبدو لها بريق شديد من نور ساطع تنبهر منه عيناها. وعاشت السيدة سبع عشرة سنة في هذا العذاب ومثله ثم ماتت فريسة الآلام والأحزان.

وفي حكاية عن فتاة فرنسية اسمها لواز في الثامنة من عمرها كانت تعيش مع أبيها وأمها في قرية اسمها فوريير. وفي يوم السبت في الخامس عشر من حزيران سنة ١٥٩٨ حدث أن هذه الفتاة أُصيبت بعطل في قوة أطرافها مما اضطرها إلى أن تمشي على الأرض على يديها ورجليها وتعوج فمها بصورة شنيعة. ومضى على تلك الفتاة وهي على تلك الحالة عدة أسابيع لم يظهر عليها أي تحسن، وقرر أبوها وأمها أنها في حكم عفريت أو شيطان وأنه لا بد من تحريرها من هذا الحكم حتى تشفى مما فيها، وأخذاها إلى كنيسة هناك وهناك أجريت لها مراسم دينية وتبين أنها تحت حكم خمسة عفاريت. ولمّا سُئلت الفتاة عن حالتها أجابت كاهن الكنيسة بأنها تتهم امرأة اسمها فرانسواز بأنها هي المسببة لحالتها ومصدر شقائها. وقالوا إن العفاريت رفضت أن تترك الفتاة في أول الأمر. ولكن الأب والأم قضيا ليلة بكاملها في الصلوات والدعوات إلى أن خرجت العفاريت من فم

الفتاة على شكل كرات صغيرة، وكان من الجملة عفريت على شكل قط أسود. وبخروج العفاريت من جسم الفتاة عادت إليها عافيتها. وأقرت المرأة فرنسواز بأنها هي التي أدخلت العفاريت في جسم الفتاة، وأنها منذ زمن كانت تخدم الشيطان وكان الشيطان يظهر لها في شكل زنجي أو قط أو كلب أو دجاجة.

* * *

ومن قبيل ذلك ما قيل عن القطاط بأنها من الجن وأنها في أشكال الجني والجنية تألف البشر وتعاشرهم. ونذكر على سبيل المثال حكاية عن المؤلف لين Lane الذي ترجم ألف ليلة وليلة إلى العربية وكتب كتاب «المصريون الحديثون» جاء فيها حديث عن التوابع والقَّابعات من الجن الملازمين والملازمات للبشر. قال المؤلف في حكايته أن شيخاً محترماً من مشاهير العلماء في مصر اسمه الشيخ خليل المدابغي وصاحب مؤلفات عديدة في مختلف العلوم كان من بين الذين اجتمع بهم في مصر وأنه قص عليه الحكاية التالية، وخلاصتها أن الشيخ كان له قط أسود محبب إليه وكان هذا القط ينام في الليل قرب قدمي الشيخ في الفراش. وفي إحدى الليالي سمع الشيخ في منتصف الليل قرعاً للباب، فأفاق الشيخ وأطل من شباك فوق الباب وقال: .مَن؟ فأجابه صوت يقول «أنا فلان (وذكر اسماً غريباً) أنا الجنيّ، افتح الباب!» فقال القط: المفتاح مذكور عليه اسم الله. فقال الجني: إذن أنزل إلي رغيفين من الخبز. فقال القط: والرغيفان مذكور عليهما اسم الله. فقال الجني: أعطني على الأقل شربة ماء، فقال له القط: وقلة الماء مذكور عليها اسم الله. وقال الجني إنه سيموت من الجوع والعطش، فقال له القط أن يذهب إلى البيت المجاور، وذهب مع الجني وفتح له الباب ثم عاد. وفي الصباح أعطى الشيخ لقطه نصف الفطيرة التي كان من عادته أن يفطر عليها ولم يعطه قطعة صغيرة كعادته، ثم قال للقط: يا قطي أنت تعلم أنني فقير، فلماذا لا تأتيني بشيء من

الذهب أعيش به؟ وحينئذ اختفى القط عند هـذا الكلام، وكـان ذلك اخـر العهد به.

* * *

وفي حكاية رواهـا كاتب اسمـه هدلنـد ديفس Hadland Davies أن فارساً جريئاً أحس بالتعب في سفره فآوى إلى معبد خـرب بين الجبال ومـا كاد يستقر في مكان له في المعبـد حتى غشيه النـوم العميق. وفي منتصف الليل شعر بشيء مـزعج أقلقـه، فنظر فـإذا به يـرى جمعاً من المخلوقـات العجيبة على شكل قطاط ترقص وتصيـح بأصـوات عاليـة، وسمع القـطاط تقول: إياك أن تخبر شبيتاروا. ثم اختفت القطاط وعاد الفارس إلى نومـه. وفي الصباح تابع رحلته، ومرّ في قرية كان أهلهـا في غايـة من الاضطراب والجزع، وسأل الفارس عن سبب ذلك، فقيل له إن ذلـك اليوم هـو موعـد مضروب على أهل القرية يقدمون فيـه فتاة جميلة لقط جني يسكن المعبـد الخرب بين الجبال يجرونها إليه حتى يأكلها هناك، فتـذكر الفـارس المعبد المذكور وتذكر مـا جرى لـه في المعبد مـع القطاط في تلك الليلة هنـاك، وسأل: ومن يكون شبيتـاروا هذا؟ فقيـل له إنـه كلب شجاع ضخم يملكـه أحـد رجال أميـر البلد. وأدرك الفارس أن هـذا الكلب هـو الحـل لمشكلة القرية. فأخذ الفارس ذلك الكلب ووضعه في قفص ثم سار به إلى المعبد بين الجبال ووضع القفص هناك وجلس يرقب ما قد يجـري. وفي منتصف الليل ظهرت القـطاط العجيبة الخلقـة وكان يقـودها قط ضخم، فلمـا رأى ذلـك القط القفص الذي فيـه الكلب اندفـع يهاجم بشـراسة. وحينئـذ فتح الفـارس بـاب القفص فخـرج الكلب منـه وقبض على القط الضخم بفمـه واستل الفارس سيفـه وضرب القط وقتله، فتـطايرت القـطاط في كل جهـة فزعاً ولم ير لها أثر بعد ذلك. وكانت تلك الليلة خاتمة فاصلة لمأسـاة تلك القرية.

* * *

وفي سنة ١٥٧٠ جرت محاكمتان في بلدة وندزر في جنوب إنكلترة ظهر القط مظهراً بارزاً فيهما بوصفه تابعاً للساحرات. وورد في إحدى المحاكمتين أن سيدة تدعى ديول Deuel كان لها تابع من الجن في شكل قط أسود وكانت تستعين به في أعمال السحر، وكانت تسقيه الحليب يومياً ممزوجاً بشيء من دمها. وورد في المحاكمة الثانية أن سيدة اسمها مارغريت كان لها تابع جني وكانت تطعمه فتات الخبز مغموساً في دمها. وفي سنة ١٥٨٢ شهد غلام في سن الثامنة في بلدة من مقاطعة أسكس في جنوب إنكلترة أن أمه كان لها أربع توابع من الجن في شكل قط أسمر وفي شكل خروف وفي شكل ضفدع وفي شكل قط أسود وقال إنه رأى أمه تسقي تلك التوابع الجعة وتطعمها الخبز وأن هذه التوابع كانت تأتي أمه في الليل وتمتص ما تشاء من دمها من مواضع مختلفة من جسمها.

وفي محاكمة للساحرات جرت في جنوب إنكلترة في مقاطعة هناك شهدت إحداهن أن سيدة اسمها ويد أعطتها قطة بيضاء وحرجت عليها بأن تجحد بالله وأن تثبت ذلك الجحود بدمها لأنها إذا فعلت ذلك فإنها تستطيع أن تقتل أي إنسان إذا أفلتت تلك القطة عليه. وشهدوا على تلك الساحرة أنها كفرت بالله وثبت كفرانها بأنها كانت تغرز بنانها بإبرة حتى إذا بزغ الدم جاءت القطة ولعقته.

وإعطاء الدم للقط يلعقه أو يتغذى به كان في رأي الساحرات سبباً يصل بينهن وبين توابعهن من الجن ووسيلة تجمع بين الساحرة والتابعة أو التابع من الجن. وكان الاعتقاد أن دم الإنسان هو روحه السيالة وأن انتقال شيء من هذا السيال إلى جسم التابع من الجن معناه انتقال شيء من روح الساحرة إلى التابع. وهذا رباط يجمع بينهما.

* * *

وفي سنة ١٦١٨ شنقت عجوزان في بلدة لنكولن Lincolin على أنهما كانتا قد سحرتا أولاد النبيل رتلاند Rutland بواسطة قط جني تابع

لهما. واعترفت إحدى العجوزين أنها حكت ظهر منديل زوجة النبيل على ظهر ذلك القط وأمرته بأن يطير، فطار القط وهو يموء. وشنقت العجوز بناء على هذه البينة لا غير. أما الأولاد فأصيبوا بحمى خفيفة ثم ماتوا، وأقيم لهم نصب تذكاري في كنيسة قرب بلدة نوتنغهام Notingham وكتب على ذلك النصب التذكاري بأن الأولاد ماتوا في طفولتهم من تأثير الأعمال السحرية. ويظهر أن اتصال تلك العجوز بذلك القط الذي قيل عنه إنه تابع جني لها كان سبباً كافياً لتبرير شنقها.

* * *

وكان النبيل فير فاكس Fair Fax على علو مقامه في الأدب يؤمن بأن الساحرات حقيقة واقعة وأن أعمالهن السحرية شر على الناس. وفي سنة ١٦٢١ أجرى ذلك النبيل محاكمة لستّ نساء اتهمهن بأنهن سحرن بناته الثلاث، وكتب النبيل قصة ذلك وقال إن أولئك الساحرات كان لهن توابع من الجن، وكان لاثنتين منهما تابعان من الجن على شكل قطين وكان لثالثة تابع في هيئة ممسوخة ولونه أسود وشعره خشن وله أرجل عديدة وجسمه بقدر جسم قط كبير. وكان لابنة هذه الساحرة الثالثة تابع من الجن على شكل قط أبيض مبقع بسواد. وساحرة أخرى كانت تمتلك تابعاً من الجن على شكل قط كبير أسود مدة أربعين سنة. وقيل عن الساحرات الأخريات أنها كانت تمتلك توابع من الجن من الطير، وقالت بنات النبيل عن ساحرة سابعة كانت تعذبهن وأنه كان لها تابع من الجن على شكل قط أبيض كان يرافقها مدة عشرين سنة. وقالت إحدى البنات إنها كانت تصاب بذهول وكانت ترى صوراً مروعة لقطاط عديدة، وكان أحد تلك القطاط يكشر عن أنيابه ويهر في وجهها.

* * *

وذكر رجل اسمه كيفارد Giffard في كتاب له عن السحر والساحرات في سنة ١٦٠٣ عن ساحرة كانت تستخدم تابعاً من الجن على

شكل قط من أجل القضاء على ثلاثة خنازير وبقرة كانت لمزارع هناك انتقاماً منه. إلى غير ذلك من الأخبار.

* * *

وكانت القطاط تنذر بوقوع شرّ أو موت. فقد ذكر العالم في الطبيعة آلدروفاني الذي عاش في القرن السادس عشر أن رجلاً اسمه كاردانو كان مستلقياً في فراشه فمر قط على غير انتظار لحظة ثم اختفى وإذا بالرجل يفارق الحياة. وذكر هذا العالم أيضاً أن قطاً جاء إلى امرأة وخدّش أحد ثدييها واختفى وماتت المرأة بعد بضعة أيام. وكان الناس يعتقدون في ألمانيا أن ظهور قط أسود على فراش مريض معناه قرب الموت وأن القط الأسود هو الشيطان نذير الموت. . وفي إيطاليا الشمالية اعتقاد بأن الرجل إذا رغب في الموت فإن الشيطان يمر من أمام فراشه على شكل تيس أو ديك أو قط. وفي رأي الأستاذ روخهولتس Rochholtz أن الألمان يعتقدون من جملة اعتقاداتهم أن القتال بين قطين إذا حدث أمام رجل مريض معناه قرب موته. وعللوا ذلك بأن القطين هنا يمثلان الشيطان والملاك يأتيان لقبض روح المريض فهما يتنازعان في ذلك. وفي مقاطعة نورماندي من فرنسا اعتقاد كان سائداً مفاده أن قطاً له لون السلحفاة إذا تسلق شجرة كان ذلك إنذاراً بالموت بحادث عارض وأن قطاً أسود إذا مر قاطعاً طريق عابر سبيل في نور القمر فإن ذلك معناه موت عابر السبيل في وباء.

* * *

وللقط دور في الأحلام، فقد ذكر مؤلف يوناني قديم أن رؤية النائم لقط وتخدشه بأظفار ذلك القط دليل على قرب إصابة النائم بالمرض. وقالوا عن أن رؤية النائم لقط أسود في عيد الميلاد دليل على قرب إصابة النائم بمرض خطير في السنة التالية لعيد الميلاد. وذكروا عن مريض طال مرضه ولم يعرف لمرضه أي سبب أنه كان دوماً يرى شبحاً في شكل قط

كبير كان يظهر له لمحة ثم يختفي. وظل الحال على ذلك المنوال والمريض يزداد مرضاً يوماً بعد يوم حتى مات.

وفي كتابات جمعية الروحانيين مثال على أن القط نذير الموت في حكاية ذكرتها سيدة اسمها كيرني Kearney مفادها أن جد تلك السيدة كان مريضاً في فراشه في شهر كانون الثاني من سنة ١٨٩٢، وحدث أن السيدة كانت في مساء أحد الأيام قد زارت جدها ونزلت من على الدرج وإذا بها ترى قطاً غريب الشكل أمامها. ولما رآها القط أسرع بالاختفاء من وجهها وراء باب هناك كان يفصل بين قسمي البيت. فمشت السيدة كيرني وراء القط تريد أن تلحق به، ولكنها لم تر له أثراً وتوارى عن الأنظار. وفي اليوم التالي مات جدها وعلى أثر ذلك قالت جدة السيدة كيرني إنها رأت في مساء اليوم الذي مات فيه الجد قطاً كان يطوف حول فراش المريض.

وفي حكاية روحانية أخرى ذكرها المؤلف كلبرتسن Gilbertson على لسان رئيس الجمعية الباطنية المسيحية واسمه تندال Tindall أن ذلك الرئيس كان وهو صغير يعيش مع أبويه في حي من أحياء لندن. وفي يوم مشرق دخل من الباب المؤدي إلى خارج البيت قط أسود مسرعاً وأخذ يتنقل في البيت من غرفة إلى غرفة كالمذعور ووصل إلى شباك في الطابق الثاني من البيت وتعلق بستارة الشباك ومزقها ثم هرب. وبعد ساعات قليلة جاءت عربة من حي آخر كانت تعيش فيه عمتان للرئيس وأخبر السائق أن إحدى العمتين سقطت ميتة.

* * *

وكانوا يعتقدون أن القط يرى ما لا يراه الناس، والمصريون القدماء يسمون القط باسم (ماو) ومعنى ذلك (الرائي). وفي سنة ١٨٨٨ في شهر أيار نشرت مجلة الجمعية الروحانية في لندن حكاية على لسان سيدة كانت تسكن مع والدتها جاء فيها أن تلك السيدة كانت في مساء يوم من الأيام جالسة في غرفة النوم بالقرب من نار تستدفىء بها من برد ذلك اليوم

وبحجرها قطة كانت تحسس عليها. وكان لغرفة النوم بابان أحدهما يؤدي إلى جناح من البيت كان مغلقاً والآخر يؤدي إلى الممر في البيت. وفي غرفة النوم كرسي للراحة كانت تشغله عادة والدة السيدة، وكان في ذلك الوقت فارغاً. وكان القط هادئاً في حجر السيدة واستولى عليه النعاس فأخلد للنوم، ولم ترد السيدة أن تزعجه، وهو في نومه وفي خريره. وبعد قليل شعرت السيدة أن حياة دبّت في جسم القط فجأة، فانقطع عن الخرير وظهرت عليه علامات التيقظ والقلق، ثم وثب من حجر السيدة وتقوس ظهره وأخذ ينفث. وحملت هذه الظاهرة السيدة على أن تتلفت حولها وإذا بها ترى كرسي الراحة مشغولاً من امرأة عجوز هرمة كانت واضعة كفيها على ركبتيها وكانت منحنية بجسمها نحو السيدة يكاد رأسها يقع على رأسها. وكانت عينا العجوز تنظران إلى السيدة نظرات حادة ولهما بريق شديد. وكانت السيدة على وشك الصراخ من الخوف، ولكنها لم تقو على ذلك بسبب تلك النظرات الحادة من عيني العجوز. وكان همّ السيدة الاحتفاظ بالقط في حجرها، ولكن القط لم يهدأ وتخلص أخيراً من قبضة السيدة وقفز من حجرها ووثب من فوق الكراسي والطاولات ثم صعد إلى أعلى الباب وخرج. وصار ذهن السيدة موزعاً بين أن تنظر إلى العجوز وبين أن تنظر إلى القط الذي أصابه شبه من الجنون، ولم تتمالك أن صرخت صوتاً حادًّا سمعته أمها فهرعت إليها ودخلت عليها والقط كان لا يزال في حالة جنونية وكان ينزل الدرج ويصعده كأن وحشاً ضارياً كان يطارده. والتفتت السيدة إلى أمها تريد أن تجلب انتباهها إلى العجوز الجالسة في الكرسي وإذا بالعجوز تختفي ولا تترك أثراً.

* * *

وفي اعتقادات بين الناس أن القط يبشر بالمطر إذا حك وراء أذنيه بيديه. وذكروا عن تاجر أنه سمع قطين يخربشان على باب غرفته، ففتح الباب فتطاير القطان هرباً وأسرعا إلى باب البيت الخارجي وأخذا يخربشان

عليه، ففتح التاجر لهما فخرجا إلى الشارع وتبعهما التاجـر في الشارع إلى ساحـة منتحيـة ولم يهـدأ القـطان عن النبش والخـربشـة في الأرض والحشيش، وبعد لحظات حدثت زلزلة هدت بيوتاً عديدة كان بيت التاجـر من جملتها.

* * *

ووصف بعضهم لمن يريد أن يرى العفاريت من حوله ـ وهي لا ترى عـادة ـ أن يأخـذ غشاء مبيض قـطة سوداء تكـون أول مولـودة لقطة سـوداء ويحرقه في النار ويأخذ الرماد ويدقه دقاً ناعماً وأن يكتحل به. بهذا يستطيع رؤية العفاريت.

* * *

واستعملوا القط بمقام العوذة والحجـاب، وذلك بسبب الفكـرة التي أدخلتها المسيحية وهي أن الديانات القديمـة غير المسيحيـة ديانـات قائمـة على السحر والعفاريت والشياطين فهي ديانات تتستر بالظلام، والقط الذي يتخذ الظلام مسرحاً لحركاته هو من أعمدة الظلام، ولا سيمـا القط الأسود الذي فيه أسرار سحرية يمكن الاستفادة منهـا واستخدامهـا. وسرى اعتقـاد عن القط بأنه لمـا كان حليف الـظلام يرى فيـه الأشياء بـوضوح فهـو ممثل للقمر الذي يطلع في الليل وترى الأشياء بنـوره. وهو قـادر على الشفاء من العمى وعلى إضفـاء الرؤيـة الثانيـة على النـاس إذا تـدبـروا الأمـر وأتقنـوا الـطريقة للحصـول على تلك الـرؤيـة. ومن جملة الـوصفـات التي كـانت معروفة لأجل هذا الغرض وصفة خـلاصتها مـا يلي: يؤخذ رأس قط أسـود بهيم ليس في لونه شـارة من لون آخـر، ويحرق حتى يصيـر رماداً في قـدر صالحة لذلك. ثم يؤخذ هذا الـرماد ويـذر في العين منه شيء قليـل ثلاث مرات في اليوم، ولا يلبث هذا الرماد أن يجلو البصر فيـزول العمى إن كان عمى ويضيف إلى البصـر إن لم يكن عمى رؤيـة ثـانيـة حتى إن الشخص يصبح بفضل هذه الوصفة قادراً على أن يرى في الظلام كالقط.

وفي وصفة أخرى لإزالة شحاذ العين جاء فيها أن إمرار ذنب القط على العين التي فيها الشحاذ مرات كل يوم في مدة أيام قليلة يبرىء العين تماماً. ويكفي لإزالة الشحاذ في وصفة أخرى أن تؤخذ شعرة من طرف ذنب قط أسود في وقت يكون فيه القمر مشرقاً في سماء صافية وتمرر على العين المصابة تسع مرات. وينسبون إلى القط أنه إذا وجد طريقه إلى قبر أحد الأموات فإنه يعمد إلى عيني الميت فيقتلعهما ويأكلهما، ولذلك فإنهم كانوا لا يسمحون لقط أن يدخل غرفة فيها ميت. وكانوا يمنعون أيضاً القط من دخول غرفة فيها نائم اعتقاداً منهم بأن القط قد يثب على النائم وإذا وثب أصابه بالعمى.

ولما كان للقط علاقة بالقمر في الليل، فإن الناس في بعض البلاد يرون أن القط يُستسقى به ويُستجلب به المطر. ففي إحدى جرائر الهند الشرقية يستجلب الناس المطر بأن يربطوا قطاً في عربة ويطوفون به حول الأراضي الجدباء وهم يرشون القط بالماء. وإذا بدأ القط بالمواء صاح الناس في دعائهم يقولون: «ربنا نزّل المطر علينا». وفي الملايو عند الاستسقاء تخرج امرأة وعلى رأسها قدر منكوسة تسير بها ثم تضعها على الأرض وتملأها بالماء وتأتي بقط ثم تبلله بالماء. هذه العملية في اعتقاد الناس تستجلب المطر بعد قليل. وفي جاوة تكون العملية بغسل قط أو بحمل قط وقطة في موكب عام. وفي سومطرة تجتمع نساء القرية وينزلن في النهر ويتراشقن ويترششن بالماء، ويحملن معهن قطاً أسود يلقينه في الماء حتى يضطر إلى الخروج سبحاً وتخرج النساء وراءه تطارده. وسواد القط يأتي بالغيوم السوداء.

الرجال العظام محبو القطاط[1]

الكتاب المذكور في الحاشية أدناه هو مجموعة من القصص نثراً وشعراً عن رجال أو نساء أحبوا القطاط بصورة خاصة وكانوا من عداد الأدباء والشعراء والسياسيين والعلماء وغيرهم. وليس في المستطاع نقل تلك القصص بأعداد كبيرة خوفاً من الإطالة وتجاوز الحد، ولكن في المستطاع ذكر شيء منها يكفي لإيضاح الغاية من هذا الفصل في هذا الكتاب وهي عرض صورة شاملة عن محبة الرجال العظام للقطاط[1].

وأبدأ ذلك بقصة شاعر إيطالي اسمه بالستريري Balestriri المولود في ميلان سنة ١٧١٤. وكان لهذا الشاعر قطة محبوبة ماتت، فرثاها شعراً هو وكل واحد من أصدقائه الثمانين، ونشرت المرثيات الشعرية هذه في كتاب عنوانه «دموع على موت قطة» سنة ١٧٤١، وكانت هذه المراثي في اللغات الإيطالية واليونانية واللاتينية والفرنسية والعربية، وعدد صحائف الكتاب ٢٨٠، وجاء في أول قصيدة رثائية ما معناه: «أيها القارىء الذي يأخذ هذا الكتاب بيديه، إن كنت لا تعرف شيئاً عن الشعر أو كان ينقصك

(١) «A Dictionary of Cat Lovers». By Christabel Aberconway; Pulb Michael Joseph. London, 1949.

حسن الأدب والشعور الإنساني فلا تنفق دراهمك في شراء هذا الكتاب بل ابقها في جيبك وامض في سبيلك، أما إذا كنت ـ وهذا هو المأمول ـ صادقاً في مسيحيتك وصديقاً للإله أبولو إله الشعر وربة الشعر ثالياً فالرجاء منك أن تقرأ هذا الكتاب وحفظك الله في تمام الصحة ووقاك الله الشر في حياتك. في هذا الكتاب أغنيات للتسلية تشيد بذكر قطة ماتت في شرخ شبابها، وكانت من نسل مرح طروب، تحب الصخو والطقس الجميل، ولم يجر منذ موت شارلمان هزة للمشاعر كالهزة التي عمت جميع إيطاليا بموت هذه القطة ولا كتب عن ذلك أحد كالذي كتبناه هنا».

* * *

واشتهر الكاتب الفرنسي بلزاك Balzac والشاعر الفرنسي بودلير Beaudelaire بحبهما للقطاط. وكتب الشاعر الفرنسي بليمون Blimont مقطعات شعرية في قط له اسمه (آلي). وكتب الروائي التشيكي تشابك Capek يصف نفسية القط وبعض الأسرار في حياته فقال إن القط يعجبه الصفير ويفتتن به ولعله كان في أول طور من أطوار نشوئه يصفر بدلاً من أن يموء أو لعل آلهة من جنس القطاط كانت تصفر لأتباعها بدلاً من المواء. وقال إن القط حيوان وحشي. والقط لا يمشي كالحيوانات الوديعة الأخرى ولكنه يجوس طلباً للصيد، والإنسان يرى صداقة بين القط والكلب ولكنه لا يرى صداقة بين قط وآخر، والقط إذا رأى قطاً آخر بجانبه هرّ عليه. والقط مع ذلك يأنس بالإنسان ويدلل على ذلك بأنه يخرخر له ويحتك به ويقعد في حضنه وينام معه وينظر إليه نظرات لها معان، كأنه يقول له: اسقني، أطعمني، افتح لي الباب، داعبني، إلى آخره. فالثقة قائمة بين القط والإنسان، والقط الذي لا يأمن لإنسان يرى فيه أنه وحش لا أنه إنسان، وهذه الثقة المتبادلة بين القط والإنسان هي أقدم علاقة تربط بين الجماعات في المجتمع البشري.

* * *

ويحكى عن الأديب الفرنسي شاتوبريان Chateaubriand أنه كان

محباً للقطاط وبلغ من حبه لقطة كانت عنده أنه كتب يوماً إلى صديق له يقول له إنه يخشى أن تتغير ملامحه وتصير أقرب إلى ملامح القطاط من كثرة تعلقه بقطته وملازمتها له. وكان شاتوبريان في روما وزار البابا ليو الثاني عشر فاستقبله البابا في غرفته الخاصة المتواضعة، وقال شاتوبريان عن هذا البابا إنه كان يعيش عيشة الكفاف ويعتزل في غرفة له ولا رفيق له إلّا قطة ربّاها هو وكانت تشاركه طعامه عند الأكل. ولما مات البابا أخذ شاتوبريان القطة وحملها من روما إلى باريس وأسكنها معه بيته، ولم تكن القطة تشعر بالغربة ولا بالبرد بعد أن فقدت حرارة الشمس في روما، واستقرت في بيت شاتوبريان واطمأنت فيه.

* * *

وكان للروائي الإنكليزي تشارلس ديكنز قطتان كان يحبهما وكتبت ابنته عنه ووصفت تينك القطتين وقالت إن أحد أصدقاء العائلة أهدى أباها قطة صغيرة، ولم يكن وجود قط أو قطة في البيت شيئاً مرغوباً فيه وذلك لوجود طير وعصافير في البيت في ذلك الوقت. ومع ذلك فقد أصبحت تلك القطة الصغيرة محببة إلى أفراد العائلة ولا سيما إلى والدها. ثم ولدت تلك القطة أولاداً وكانت تأخذ أولادها إلى زاوية في غرفة والدها التي كان يستعملها للدراسة والتأليف. ولما كان وجود القطة وأولادها في الغرفة فيه شيء من الإزعاج فقد نقلت هي وأولادها إلى مكان آخر، ولكن القطة عادت ونقلت أولادها إلى تلك الزاوية. ثم نقلت مرة ثانية، وفي المرة الثالثة نقلت القطة أولادها واحداً واحداً ووضعتها تحت قدمي الوالد، ونظر الوالد إليها فنظرت إليه نظرة استرحام كما لو أنها كانت تستدر بتلك النظرة عطفه على أولادها الصغار. وهنا رق قلب الوالد وحن على القطة وأولادها وسمح لها بالبقاء. ثم كبرت القطاط الصغار وأخذت تلعب في أنحاء الغرفة بين الكتب أحياناً وعلى طاولة الكتابة أحياناً أخرى. ولم يضق الوالد صدراً بتلك القطة بل تركها وأولادها في غرفته، إلى أن حان الوقت لتوزيع القطاط على بيوت مختلفة فوزعت وتركت قطة صغيرة لأنها

كانت متعلقة بـالوالـد ولأن الوالـد كان يحبهـا، وبلغ من تعلقها أنهـا كانت تتبعـه أين ذهب في البيت وفي الجنينة كمـا لو كـانت كلبـاً وكـانت تجلس على طـاولة الـوالد. واتفق أن خـرج سكان البيت في أمسيـة لهم وتـركـوا الوالد ومعه قطته. وكان الوالد جـالساً يقـرأ في ذلك المسـاء وأمامـه شمعة يستضيء بها، وفجأة طفئت الشمعة فقام الوالد وأشعلها وتابع قراءته، وإذا بـالشمعة تنـطفىء مرة ثـانية، فنـظر الوالـد إلى القطة فعـرف أنها هي التي كانت تطفىء الشمعة بيدهـا، كأنهـا كانت تـرى أن انهماك الـوالد بـالقراءة يلهيه عنها، وأنها تريد منه أن يداعبها.

* * *

والـروائي الفرنسي ألكسنـدر دوما Alexander Dumas كـان مغـرمـاً بالحيوانات والطير مثل الشاعر الإنكليـزي بايـرون Byron وكان يحب مثـل بايرون أن يكون محاطاً بتلك الحيوانـات والطيـر تجول وتلعب من حـوله، ولم يكن مغرماً بالقطاط بصورة خاصة، ولكن كان له قطان اسم كـل منهما (ميسوف) والقط الأول منهما كان في الأصل لأمه وكان يظن فيه أن له قوى باطنية وأن له رؤية ثانية يرى بها كـل شيء في الظلام أو في الغيب. وكتب ألسكندر دوما عن ذينك القطين وقال في حكايتـه عن القط الأول (ميسوف) إنه كان أشبه ما يكون بالكلب، فإن ألكسندر كان يخرج من بيتـه كل يـوم في الصبـاح إلى مكتبه في شـارع آخر، وكـان سيـره من بيتـه إلى المكتب يأخذ من وقتـه نصف ساعـة وكان يقضي سـاعات في العمـل في مكتبه ثم يعود إلى بيته في الساعة الخامسة بعد الظهـر. وكان (ميسـوف) يخرج مـع ألكسندر ويسير معه مرافقاً له إلى موضع بين الشارعين ويقف هناك ثم يعود إلى البيت، وحتى إذا اقتـرب موعـد عودة ألكسنـدر من مكتبـه خـرج القط (ميسوف) من البيت إلى ذلك الموضع حتى يلـتقي بـألكسندر ويعـود معه إلى البيت. والغريب في أمر ذلك القط أنه كان لا يأتي للقاء ألـكسندر عند عودته من مكتبه كالعادة في اليوم الذي كان ألكسندر لا يعود فيه إلى البيت بل كان (ميسوف) يظل سـادراً في نومـه دون حركـة. وفي اليوم الـذي كان

ألكسندر يعود فيه من مكتبه كان القط ينهض من مرقده ويسير إلى باب البيت فإذا رآه مغلقاً أخذ يخرش الباب بأظفاره ويموء إلى أن يفتح له الباب ويخرج للقاء ألكسندر، وكان يذهب إلى الموضع المعين فإذا رأى الكسندر قادماً نهض للقائه وأخذ يحرك ذنبه بشدة وبسرعة إعراباً منه عن سروره ويتقافز حول قدمي ألكسندر ثم يركض أمامه كالكلب مسافة ويعود ثم يركض وهكذا إلى أن يصل مع ألكسندر إلى البيت. وكان ألكسندر يقول عن ذلك القط إنه كان ينبغي له أن يولد كلباً.

* * *

وكان الأدباء يوصون بالقطاط في وصياتهم، فقد ذكروا عن أديبة فرنسية في القرن السابع عشر ذكرها منكريف Moncrif في كتابه عن القطاط أنها تركت وصية قالت فيها: أريد من أختي ومن ابنة أخي أن تشملا برعايتهما قطتي. فإن عاشت القطتان بعدي فأريد أن ينفق عليهما ثلاثون نحاسة كل أسبوع حتى تعيشا عيشة حسنة، ويجب أن يقدم لهما بصورة لائقة وجبتان من الطعام من اللحم والمرق كل يوم كاللحم والمرق اللذين نأكلهما نحن ويجب أن تقدم الوجبة لكل منهما على انفراد. والخبز للقطتين لا يقطع في المرق بل يجب أن يقطع قطعاً صغيرة مربعة بحجم الجوزة، وإلاّ فإن القطتين لا تقبلان على الطعام. واللحم يجب أن يقطع قطعاً صغيرة دقيقة تضاف إلى المرق وقطع الخبر فيه؛ ثم يوضع الجميع في صحن وتوضع فيه التوابل المناسبة ثم يوضع على نار هادئة حتى يسخن قبل تقديمه، وإذا ماتت قطة منهما فنصف النفقة ينفق على القطة الباقية.

وبعدما يقرب من قرنين تركت سيدة إنكليزية ماتت في فرنسا سنة ١٨٤١ وصية لها نشرت جريدة التايمز اللندية سنة ١٨٤٣ نبذة منها جاء فيها: أرغب أن يؤخذ من أملاكي ما قيمته ٨٠٠ فرنك يعطى كل ثلاثة أشهر إلى أشخاص أرضى عنهم على شرط أن يقوم أولئك الأشخاص

بالعناية بقطاطي الثلاث لينا وفانفان وميني وبتغذيتهما. ويجب أن يسكن الأشخاص مع القطاط في الطابق الأرضي من بيتي وأن يجعل للقطاط سبيل للخروج إلى الجنينة وأن تأوي القطاط إلى البيت حتى تنام فيه بعد العشاء.

* * *

وكانت جوديث كوتيه Judith Gautier (١٨٥٠ ـ ١٩١٧) ابنة الأديب الفرنسي ثيوفيل كوتيه Théophile Gautier تحب القطاط كأبيها وكتبت في سيرتها وصفاً للقطاط التي كان يحبها أبوها. وكنت ذكرت في هذا الكتاب قصة عن إحدى قطاط هذا الأديب الفرنسي واسمها مدام ثيوفيل. وكان له قط آخر كان يسميه بيرو Pierrot ووصفه بأنه قط أبيض ناصع البياض وأنه كان يعيش في البيت كأحد أفراده وكان الموضع المحبب له هو الموضع القريب من النار حيث كان يستلقي في غاية الاطمئنان ينظر إلى الجالسين نظرة الفاهم للحديث الجاري بين المتحدثين لأنه كان بين الفينة والفينة يلمح المتحدثين بنظرات متتابعة ويبغم بأصوات خفيفة كأنه يريد أن يبدي موافقته أو معارضته لما كان يقال في حديث الأدب والشعر. وكان القط مغرماً بالكتب حتى إنه كان إذا رأى كتاباً مفتوحاً قعد عليه وأخذ يلعب بورق الكتاب بيديه، ثم نام عليه، وإذا أخذ ثيوفيل كوتيه قلمه ليكتب وثب القط إلى الطاولة وأخذ ينظر بإمعان إلى سن القلم وإلى حركة القلم على القرطاس ويبدي كما يظهر إعجابه بتلك الحركة وذلك بأنه كان يتابع القلم وهو يكتب سطراً حتى ينتهي السطر ثم ينتقل بنظره مع القلم إلى السطر الثاني وهكذا. وكان القط أحياناً يحاول إمساك القلم المتحرك كأنه يريد أن يكتب به هو أيضاً. واعتاد القط أن يظل متيقظاً في الليل عازفاً عن النوم إلى أن يعود صاحبه إلى البيت، وكان ينتظر عودة صاحبه وراء الباب، ومتى دخل صاحبه نهض القط وأخذ يتحسس بقدميه ويخرخر إيذاناً بفرحه وسروره، ثم يمضي أمامه كالدليل ويسير إلى غرفة النوم وينتظر حتى يتم صاحبه خلع ثيابه ثم يثب على السرير ويرفع جسمه حتى يصل إلى رقبة

صاحبه فيداعبها ويفرك رأسه بها ويلحس وجه صاحبه. وكان في الصباح يأتي إلى فراش صاحبه ويتمدد عليه إلى أن ينهض صاحبه منه.

وكتب تيوفيل كوتيه أشياء أخرى عن ذلك القط. ومنها أن القط أصيب بمرض السل ومات. وماتت بعده ببضع سنوات القطة سرافيتا. وترك القطان من الأولاد ثلاثة كانت جميعها سوداً حالكة السواد. وكتب كوتيه حياة تلك القطاط الثلاثة.

* * *

ومن الكتّاب الفرنسيين الآخرين الذين كتبوا عن القطاط لفرط محبتهم لها الكاتب والشاعر الفرنسي راؤول جنست Raoul Gineste، فقد نشر هذا الكاتب في سنة ١٨٩٢ مجموعة من القصائد بعنوان «القطاط والقطّات».

ويحكى عن الشاعر والأديب الإنكليزي أدمند غوس Sir Edmund Gosse أنه كان محبًّا للقطاط وأنه كان له قط محبب اسمه كاروزو Caruso كان يصاحبه دوماً على المائدة على كرسي خاص به ويصاحبه أيضاً في أوقات قراءته، وشعور هذا الأديب والشاعر بمرافقة قطه كاروزو كان شعوراً بالطمأنينة وتهدئة الأعصاب يشبه شعور عدد من أمثاله السابقين، بل إنه كان يشعر بأن حديثه مع أصدقائه يكون أسلس وآنس إذا كان قطه بجانبه يسمع خرخرته. وهكذا كان غوس يبقي على الهدوء في البيت دون إحداث أي إقلاق لراحة قطه، ولم يسمح بوجود كلب في البيت لهذا الغرض. ومع أن ثيوفيل كوتيه كان يقسم حبه للحيوانات مقسماً بين القطاط والفئران البيض فإن غوس هذا كان يحب القطاط وحدها مثل الأدباء والشعراء الفرنسيين شاتوبريان Chateaubriand وفكتور هوغو Victor Hugo وبودلير Baudelaire وسنت بوف Sainte-Beuve.

* * *

وكان للروائي الإنكليزي توماس هاردي Thomas Hardy قط يحبه

كثيراً، ولما مات القط رثاه بقصيدة جعل عنوانها «كلمات أخيرة لصديق أبكم». وعاش هاردي مدة من غير قط. ولكنه في آخر أيامه اقتنى قطاً سماه كوبي Cobby وتعلق هذا القط بصاحبه ولازمه أينما كان، ولما كان هاردي في فراش الموت خرج القط ولم يعد.

وفي موقعة بحرية بين الولايات المتحدة وإسبانيا جرت سنة ١٨٩٨ حدث في نهايتها أن تم القضاء على الأسطول الإسباني بكامله واضطر رئيس بحارته وبحارته إلى ترك سفينة القيادة بأجمعهم وخلفوا وراءهم قطة أنقذها من الغرق ضابط أمريكي اسمه هوبسون. وفي وصف إنقاذه لتلك القطة، يقول كاتب اسمه هالبرتون Halliburton إن هوبسون وجد القطة لا تزال حية في السفينة بعد مرور أسبوعين على انتهاء المعركة، فأطعمها وسقاها طول المدة التي كان فيها في السفينة للتفقد، فكانت تتبعه أينما ذهب هناك وتقرر جر السفينة إلى كوبا لإصلاحها بواسطة سفينة جر اسمها بلقان، وفي أثناء ذلك هبت عاصفة هوجاء وكان من الضروري هجر السفينة، ولما أراد البحارة إنقاذ القطة رفضت القطة ذلك وتسلقت سارية السفينة فتركوها هناك، وقال البحارة في تقريرهم إن السفينة قد غرقت وغرقت القطة معها. وبعد أربعة أيام عثرت إحدى السفن الناقلة على حطام السفينة الإسبانية. وعلم هوبسون بمصير السفينة الإسبانية وبمصير القطة فغضب لذلك وقرر أن يقوم بنفسه بإنقاذ السفينة وبإنقاذ القطة، وأخذ بالأعمال لذلك فوراً، وأرسل ضابطاً يبحث عن القطة، ووجد الضابط القطة حية فإن بعض الزنوج كان قد وجدها على حطام السفينة الذي قذف به البحر فأخذها إلى زعيمه فأعطاها إلى ابنته الصغيرة وقامت هذه البنت بالعناية بالقطة وتعلقت بها ولم ترد أن تفارقها. وعرض الضابط على البنت خمس دولارات في مقابل القطة، وزاد ذلك إلى عشر دولارات ثم إلى خمس عشرة دولاراً، فرضي أبوها بالثمن وأخذ القطة من البنت وهي تبكي وسلمها إلى الضابط فحملها الضابط منتصراً إلى هوبسون، فنقلت إلى

سفينة الجر بلقان، وأقلعت هذه السفينة، وسرعان ما هبت على السفينة عاصفة شديدة، وخاف الربان على حياته وحياة بحارته، وجزم بأن الذي جلب هذه المحنة هو القطة لأنها ساحرة. ثم جنحت السفينة إلى الشاطىء وهجرها بحارتها، ولكن القطة ظلت على السفينة لم تبرحها وبقيت عليها أسبوعين ثم جاء هويسون وأخذها بين ذراعيه وأنقذها، ولا تزال الجزيرة التي جنحت إليها السفينة بلقان تسمى بجزيرة القطة.

* * *

وذكروا عن الروائي هنري جيمس Henry James (١٨٤٣ ـ ١٩١٦) أنه كان يضع قطته على كتفه ويتركها تضطجع هناك في أثناء ما كان يكتب، ولم يكن يخشى سقوط القطة عن كتفه لأنه كان قد عودها أن تتلاءم وهي مطمططة مع حركاته أثناء الكتابة. وشأن جيمس في ذلك شأن كثير من الأدباء أمثال كونكور Goncourt وبودلير Baudelaire وهوزمان Huysmans.

* * *

ومن الأدباء المهتمين بالقطاط الأديب الإنكليزي أندرو لانغ Andrew Lang (١٨٤٤ ـ ١٩١٢) وكان محباً للقطاط. وكتب في مجلة إنكليزية بعض ملاحظاته عن القطاط وعن محبيها وذكر عن أحد الأدباء أنه كان يفتخر بلقب أطلقه على نفسه وهو (قط شرف) كما لو أنه كان عضو شرف في نادٍ أو جمعية، وأنه يعتبر القطاط بأنها كغيرها من الحيوانات مرت بأطوار مختلفة من النشوء والارتقاء، ويصور طبائع القطاط منذ عصور ما قبل التاريخ ولكن الطبائع ليست واحدة، وتختلف باختلاف القطاط. وذكر عن قطه الأسود أنه كان لا يقرب طعام قط آخر، بل إنه كان إذا رأى قطاً آخر مقبلاً عليه وهو يأكل طعامه ترك طعامه وتخلى عنه لذلك القط، كما لو أنه رأى أن أكلة واحدة لا تستأهل الاقتتال من أجلها. وقط آخر إذا أُعطي رِجْل طائر أو كَتِفَه يأخذ هذه العطية ويختلي بها يأكلها وحده وإذا اقترب منه قط آخر شخر ونخر وزمجر وأبدى جشعه.

وكتب أيضاً عن أن القطاط تخشى الموت على أنفسها وعلى أولادها، واستشهد بنادرة ذكرتها سيدة فرنسية مفادها أن قطة شعرت بأنها تدنو من الموت وكان لها أولاد يظهر أنها خشيت عليهم من الجوع بعد موتها، فحملت أحد أولادها ونقلته إلى قطة أخرى لها أولاد. ونقلت ولداً آخر إلى قطة ثانية، وهكذا حتى نقلت جميع أولادها ثم ماتت. أليست هذه القطة على جانب من الحكمة، وأنها بعملها ذاك أشبه ما تكون بمن يوصي لأولاده قبل موته؟ وذكر نادرة أخرى عن قط عطبت رجله فصار مقعداً. فالقطاط الأخرى كانت تأتي له بالطعام وتضعه أمامه ليأكل حتى لا يموت من الجوع.

ومن ملاحظاته قوله إن القط إذا أشرف على الموت انزوى واختلى بنفسه يريد أن يموت وحيداً، وذكر عن سيدة أنها رأت قطاً على وشك الموت يزحف حتى وصل إلى موضع منعزل بين أحجار على جانب من الطريق فاندس بينها ورقد هناك حتى إذا مات لا يراه أحد.

* * *

كان ملك فرنسا هنري الرابع يسمح في عيد القديس يوحنا بأن تؤخذ القطاط ويلقى بها في نيران كانت توقد احتفالاً بذلك العيد، وكان ولي عهده لويس الذي أصبح فيما بعد لويس الثالث عشر (١٦٠١ ـ ١٦٤٣) يطلب إليه أن يمنع تلك الأعمال الوحشية المتمثلة في إحراق القطاط. وكانت العادة أن يقام مهرجان شعبي، كما كان يجري في باريس، وتشعل النيران ويؤتى بالقطاط الحية في سلال وأكياس وبراميل تعلق على عمود طويل وحوله النيران. وكان الناس بعد همود النار واحتراق القطاط يجمعون رماد القطاط ويأخذونها إلى بيوتهم اعتقاداً منهم بأنه يجلب حسن الحظ. وكان ملوك فرنسا يحضرون تلك المهرجانات بأنفسهم، بل إنهم كانوا يوقدون النيران لتلك المهرجانات بأيديهم. وفي سنة ١٦٤٨ جرى تتويج الملك لويس الرابع عشر وكان على رأسه إكليل من الزهور وبيده ضمة من

الزهور، وفي أثناء ذلك أشعل بنفسه النار لذلك المهرجان ورقص حول النار واشترك في الوليمة بعد المهرجان.

* * *

وكان لكاتبة إيرلندية تعرف باسم مورغن Morgan (١٧٨٣ - ١٨٥٩) شأن مع قطة لها اسمها جنجر Ginger كانت تحبها من جملة ما كانت تحبه من القطاط منذ الصغر. تلك القطة جنجر كانت في نظر صاحبتها معبوداً لها وكانت صاحبتها بمثابة من يتعبد تعبد الأوثان في أحد هياكل أو معابد المصريين القدماء. وكان لهذه القطة موضع خاص تعتزل فيه وراء خزانة أمام الحائط. ولعل ذلك كان خيراً لها لأن والدة الكاتبة الإيرلندية هذه كانت تكره جنجر. وكان من عادة الكاتبة وأختها أداء الصلاة إرضاء للوالدة كل مساء، فكانتا تعيدان الصلاة الربانية مع الوالدة ثم تعيدان صلاة خاصة بهما يدعوان فيها بالبركة على الوالد والوالدة والأخت والأقارب والقريبات. وفي إحدى الأمسيات بعد تلك الصلاة سمعت الكاتبة خرخرة القطة قريباً منها ففطنت إلى القطة فزادت في صلاتها: اللهم بارك القطة جنجر. فسمعت الوالدة هذه الدعوة فغضبت وعنفت ابنتها على طلب البركة للقطة وسألتها الابنة: ولماذا لا يجوز طلب البركة للقطة جنجر؟ فقالت الوالدة: «بالطبع لا يجوز، لأن القطة ليست مسيحية». فسألت الابنة: «ولماذا جنجر ليست مسيحية؟» فقالت الوالدة: لأن جنجر حيوان فحسب. فقالت الابنة: «وهل أنا مسيحية أو حيوان؟» وهنا استشاطت الوالدة غضباً وانتهرت ابنتها قائلة: «لن أجيب أبداً على سؤال سخيف مثل هذا». ولكن الكاتبة بعد ذلك نظمت قصيدة أودعتها عبارات الحب لقطتها جنجر.

* * *

ويقال عن الكاردينال ريشليو Richelieu (١٥٨٥ - ١٦٤٢) وزير الملك لويس الثالث عشر إنه كان شديداً في حكمه متسلطاً حتى إنهم

سموه باسم (ملك الملك)، وأنه كان قاسياً على معارضيه بقصد إخضاع الجميع لسلطان الدولة. وكان ريشليو مع قسوته وجبروته محباً للأدب والأدباء وهو الذي أسس المجمع العلمي الفرنسي وكان محباً للقطاط وكان له منها حوله أربع عشرة قطة وقطاً، وأوصى في وصيته بأموال تنفق على قطاطه وعلى من يقوم برعايتها بعد موته.

* * *

وجاء عن المركيز روشفور Rochefort (١٨٣٠ - ١٩١٣) أنه كان مناوئاً للسلطة في عهد الجمهورية الثالثة وكان لذلك عرضة للاضطهاد والمطاردة مرات عديدة إلى أن انتهى ذلك العهد فعاد من منفاه إلى باريس. وروى في سيرته التي كتبها عن نفسه فصلاً عن قيام الشرطة بغزوة لبيته بعد فراره منه، ومحنة قطاطه التي كانت في البيت عند الغزوة والتجأت إلى مخزن للفحم وأغلق عليها الباب وتركت بلا طعام ولا ماء. وجاء في هذا الفصل أن قطتين منها لما مضى عليهما عدة ساعات في سجنهما أخذتا تصيحان طلباً للطعام والماء، ولم يكن في الإمكان إنجادهما، ولم تتمكن الخادمة في البيت من عمل شيء وأرسلت برقية إلى روشفور في بلجيكا سألته فيها عن إمكان استعمال أنبوب يسلك في ثقب مفتاح الباب لإدخال الطعام والماء منه إلى القطتين لإنقاذهما من الموت جوعاً وعطشاً. ولما تلقى روشفور البرقية شعر بأن هذا الوضع لا يجوز السكوت عنه فكتب كتاباً مفتوحاً إلى رئيس جمعية الرفق بالحيوان تحت عنوان: «قاتلو القطاط» قال فيه:

«علمت عن طريق برقية لشركة هافاس أن قطاطي حبست بتهمة التآمر وغير التآمر ضد شخص النسيد كارنو. وأقسم لكم يا رئيس الجمعية أن قطاطي بريئة من كل تهمة وأنها لم تقترف أي ذنب سوى أنها كانت تأكل اللحم المخصص بالقطاط وهي لم تتخالط بالسياسة. ولا حاجة لي إلى أن أصف لكم هول ما تعانيه هذه القطاط في وضعها الحالي مع

حرمانها من كل وسيلة للاتصال بالخادمة في البيت، ولا يخفى أن هذه الخادمة تعرض نفسها للسجن ستة أشهر إذا أقدمت على إطعام القطاط وسقيها وذلك بفتح الباب عنوة الذي أغلقه مفوض الشرطة. وترك هذه القطاط على تلك الحالة إلى أن تقرر المحكمة العليا براءتها يعرضها إلى الجنون ويعرض الناس إلى مضار من مغبة ذلك. ثم إن هذه القطاط ليس لها علم بالتهمة الموجهة إليها ولا بخطورة هذه التهمة. وأزيدكم علماً أن إحدى القطتين قطة سوداء كانت كثيراً ما تثب على كتفي وتستقر هناك حينما كنت أكتب مقالاتي، أو كانت تغمس يدها في دواتي. ويوجد قانون يمنع استعمال القسوة ضد الحيوانات، وأنا أسترحم من سيادتكم أن تطبقوا هذا القانون ضد قتلة قطتي السوداء، وأن تتكرموا باختيار محام يتولى الدفاع عن تلك القطة في المحكمة. وأطلب إليكم إنقاذ القطة من المقصلة التي قد تكون نصيبها»!.

وانتهى الأمر بأن أرسل رئيس جمعية الرفق بالحيوان رسولاً إلى بيت روشفور وكلّفه بأن ينظر في الوضع ويتذاكر مع الخدام والخادمات هناك عن أحسن الوسائط التي يمكن استعمالها لإنقاذ القطاط ولا سيما القطة السوداء العزيزة. واتفق الجميع على فتح ثغرة في أسفل الباب، وبذلك أدخل الطعام والماء إلى القطاط إلى أن جاء مبعوث الشرطة وفتح الباب.

* * *

ورئيس الولايات المتحدة ثيودور روزفلت (١٨٥٩ ـ ١٩١٩) كان محباً للقطاط وكان له قط محبب اسمه سلبرز Slippers أبيض اللون، وهذا ما كتبه أحد الكتاب عن الرئيس وقطه:

لم يحظ قط بقدر من الاحترام في جميع العالم بمثل ما حظي به القط سلبرز في البيت الأبيض. وكان هذا القط أشهب اللون وكان له ستة أصابع في قدمه، ولهذا الوضع الشاذ في قدميه كان اسمه سلبرز. كان من

عادة ذلك القط في عهد الحكم الجمهوري في البيت الأبيض أن يتمسك بديمقراطيته فيتخذ من سياج حول البيت الأبيض مجثماً له مع أصحابه من القطاط بعيداً عن الكلاب التي كانت أعدادها تزداد يوماً بعد يوم. وكان هذا القط يبدي حرية في حركاته بأن كان يغيب عن البيت الأبيض وعن مجثمه على السياج أياماً وأسابيع دفعة واحدة، ولكنه كان بعد هذا الغياب كل مرة يعود وكانت عودته تكون على أثر وليمة دبلوماسية عامرة، وكيف كان هذا القط يعلم بالوليمة ولو كان أمرها سرياً خافياً. إلا أن المارين بالبيت الأبيض إذا رأوا القط على السياج علموا بوجود وليمة لا شك. وفي إحدى المناسبات التي جرت فيها وليمة دبلوماسية وقف الرئيس روزفلت ومعه زوجة أحد السفراء الأجانب من ذوي الشأن وسار في مقدمة موكب كان ينتقل من قاعة الوليمة إلى غرفة شرقية في الطرف الآخر من البيت الأبيض، وفي الموكب سفراء ومفوضون فوق العادة ووزراء كانوا يتحدثون بانشراح مع زوجاتهم، وإذا بهم جميعاً يقفون فجأة في الممر لأنهم رأوا في طريقهم القط سلبرز متمططاً على البساط في وسط الممر ينظر باطمئنان إلى أشخاص ذلك الموكب البهي. ورأى الرئيس روزفلت قطه قبل أن يدوسه بقدميه وهو في تمططه على البساط ووقف عنده. وانحنى يريد أن يرفعه بيديه ويضعه في حضنه لولا أن زوجة سفير من السفراء أبدت من الاستغراب ما جعله يحجم عن ذلك. ولكن القط سلبرز أحس بأن الرئيس يحبه فأخذ يتمرغ على البساط وهو يخرخر ولا يبدي أية رغبة في التحرك من مكانه. فتركه الرئيس في وضعه وحاد عنه هو وزوجة السفير والسفراء والمفوضون والوزراء ومن بينهم ممثلو بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والامبراطوريات والممالك. ولما استقر القوم في الغرفة الشرقية رجع الرئيس روزفلت إلى القط سلبرز وحمله بين ذراعيه وأخذه إلى زوجته السيدة روزفلت. ولعلّ ذلك غير مستغرب من الرئيس، فإن والده كما يقال كان يوماً ذاهباً لحضور اجتماع لغرفة التجارة فوجد في طريقه قطة صغيرة كان الأولاد قد آذوها فأخذ القطة الصغيرة ولفها بمنديل له ووضعها في

جيبه وحضر بها الاجتماع ثم عاد من الاجتماع إلى بيته حيث آواها وأبقاها معه!.

* * *

وذكروا عن نبيل إنكليزي كان سجيناً في قلعة لندن حول سنة ١٥٩٨ أنه كان في سجنه يشتاق إلى رؤية قطته المحبوبة وإلى وجودها معه في سجنه، وقالوا إن زوجته زارته يوماً وأتت بالقطة معها وتركتها عنده تسليه، وقالوا في حكاية أخرى إن القطة وجدت طريقها إلى السجن ونزلت على السجين من المدخنة.

* * *

وفي حكاية عن الكاتب الأمريكي مارك توين Twain ذكر لصداقة غريبة كانت بين قطة وفيل في إحدى حدائق الحيوانات. فإن القطة هذه اعتادت على أن تتسلق على رجلي الفيل هناك إلى ظهره وتستقر هناك تنام أحياناً أو تستلقي من غير نوم أحياناً أخرى. وكان الفيل في بادىء الأمر يغتاظ من القطة ويحاول إنزالها عن ظهره، وكان ينجح في ذلك الأمر، ولكنها كانت تعود إلى ظهره، وأخيراً استسلم الفيل للقطة ورضي بأن تصعد على ظهره. وشاهدت الكلاب هناك القطة وحاولت الوصول إليها. ولكن الفيل كان يطرد الكلاب عنها. حتى إنه قتل عدداً منها.

* * *

وعن كاتب أمريكي اسمه وارنر Warner (١٨٢٩ - ١٩٠٠) أنه كان محباً للقطاط وكان له قط اسمه كالفن كتب عنه فصولاً يصفه فيها ويصف أحواله وسلوكه وأعماله بشيء كثير من التفصيل ندر أن يصدر عن كاتب آخر. ومن الشعراء من نظم القصائد في قطاطهم ولا يتسنى لنا ترجمة تلك القصائد التي نظمت في لغات مختلفة.

* * *

وفي ختام هذا العرض نذكر قصة عن رجل بريطاني اسمه هنري

وايت Henry Wyat (١٤٠٠ ـ ١٥٣٧) كـان هذا الـرجل يسجن مـراراً في زمن الملك ريتشارد، وسجن مرة وضيق عليـه في السجن حتى كاد يمـوت من الجوع لولا أن حسن الحظ أتاح له قطاً كان يـأتيه بـالطعـام على صورة أفراخ من الحمام كـان السجين يطبخهـا ويأكلهـا ويعيش عليها. والحكـاية هي أن (وايت) سجن في سجن برج لندن وفي ذات يوم دخل عليـه قط لم يدر كيف دخل ولا من أين جاء، فأنس بـه (وايت) وأحسن صحبته وقـامت بين الاثنين محبة، أعرب القط عنها بأنه كان يأتيه بين الحين والآخـر بفرخ من الحمام، وكان السجين يأخذ الفرخ من القط ويطبخـه ويأكله. وهكـذا تمكن (وايت) من البقـاء حيـاً إلى أن أطلق سـراحـه بعـد مـوت الملك ريتشارد. ولهذا القط صورة مع (وايت) تخلّد هذه الحكاية.

* * *

فهـرس